سيغون ستارغو

بن زخروفة محمّد

سيغون ستارغو

01

كدأبي ، كنت مبحرا في صلوات القدّيس يوهانا وهو يطلب بخبث من حسناء زارته في الكنيسة أن تطيل الصّلاة في حضرته دون العباءة السّوداء الطّويلة ، وذلك أنّ الرّب يوصي المذنب أن يجرّد جسده من السّواد كما أوهمها . كنت أبتسم مستمتعا بخبث قدّيسيّ المعابد وهم يوقعون بالنّساء المذنبات . يبدو أنّ ليورسيس صاحب هذا الكتاب المجنون "الحياة الخفيّة للقدّاس" ملعون وكاذب وماكر، يوصل تحت العنوان الرّئيسيّ مباشرة عبارة "كلّ ما بين دفّتي الكتاب قصص واقعيّة"، قرأت الكثير عن حياة هذا الرّجل ، كان ملحدا يختلق التّهم لكلّ زهّاد الأرض المعروفين ، يحاول أن يعيش دوماً حياة البؤس فقط ليكتب في غير ثوبه ، ويسمّي مقتطفات تلك الحياة باسم شخص يحمل عداوة اتّجاهه . يعشق النّساء إلى حدّ أصبح فيه يشعر بالكآبة بعد بلوغه سنّ السّتين وتقزّز النّسوة من وجهه المجعّد ، لذلك كتب الصّحفيّ الشّهير ريمش يوما – في ملحق أدبيّ بجريدة الغد – أنّ ليورسيس قتلت إبداعه المرأة ، كان سيذاع صيته في كلّ المعمورة لولا تلك

الجاذبيّة السّخيفة الّتي يحملها لكلّ ما هو مؤنّث ، لكن رغم ذلك لا أظنّه أخطأ في نعوته لأصحاب المعابد والأجراس ، فعلا هم كذلك ، يتخطّون القانون ويفعلون ما يشاؤون باسم الرّب... لا أصدّق سخافاتهم وأنّهم متجرّدون من شهوة الحياة ، هم أكثر الأشخاص اعتقادا أنّ الحياة هي الحياة وأنّ الموت سرداب مغلق ، لكنّهم دوما يريدون التّمتع بلبّ الحياة ويمنحون النّاس قشورها. ليت الحكومة تفصح عن تلك التّقارير السّرية الّتي تصلها عن جرائم القدّاس، أووف... نسيت أنّهم اليد الخفية الرّابطة بينها وبين الشّعوب، وأنّ كلّ تلك الاعترافات الّتي تقع في حضرتهم إنّما تقع مباشرة في يد المخابرات ، حينها يستدرج المذنبون استدراجا قانونيّا نحو المحاكم ثمّ يسحبون على بطونهم نحو السّجون، ولعلّ أبرز قصّة يذكرها الكتاب والّتي أثارت ضجّة كبيرة قبل تسع سنوات، هي اعترافات السّيدة لينا زوجة حاكم مدينة "روان" الفرنسيّة لكاهن يتصيّد أخطاء المذنبين، ليرفعها إلى أسياده مقابل نيل دنانير تلقى إليه في كيس على الأرض ليلتقطها ككلب جائع.

حينما رأت السيّدة لينا أنّ جسدها بدأ ينصهر تحت شمس الشّيخوخة وأنّ سنّها يحوم حول عتبة الموت، وذلك السّر الّذي تخبّئه في دهليز ذاكرتها البعيدة المعتمة صار يشكّل لها عقدة حول

عنقها تمنعها التّنفس، حينها أصرّت عليها صديقتها لفينتا صندوق أسرارها أن ترمي تلك الحمولة الّتي ترهق شيخوختها إلى قاعة الطّهارة.

كان الكاهن شاول يكلّم السّيدة لينا من حجرة يفصل بينها وبين القاعة باب حديديّ أسفله صفيحة ذات لون ذهبيّ ، وأعلاه واجهة لها ثقوب في شكل نجمة خماسيّة ، وقفت أمام الباب بجبّة سوداء واسعة الكمّين وهي تشبك أصابع يديها وتلقي بناظرها نحو الأرض في هيئة المذنب الّذي يتوسّل الغفران من سيّده.

. بقدسيّة الكهنوت ورعاية الرّب أفصحي عن ذنبك.

. أنا من وضع السّم في عشاء والد حاكم مدينة روان السّيد أندري ليزانتو وليست خادمته ، أنا زوجة حاكم المدينة السّيدة لينا أعترف بذنبي ملتمسة المغفرة من الرّب.

حينها رفع الكاهن رأسه مصدوما ، ثبّت عينيه نحوها متأمّلا خشوعها ، ثمّ خفض رأسه مبتسما بمكر.

. الرّب يغفر ذنب كلّ شخص اعترف بخطئه ولا يزال دم الحياة يسري في عروقه ، طهّرك الرّب من كلّ ذنب ، عودي إلى حياتك كالثّوب الأبيض الّذي لم يدنّس من قبل.

. رعاك الرّب يا أبانا.

يقول الكاتب في الأخير: بعد ثلاثة أيّام أعدمت السّيدة لينا رميا بالرّصاص ، إذن لا فائدة من تكفير الذّنوب! متّى يدرك هؤلاء البشر أنّ الرّب وحده يعلم كيف يغفر لنا ولا أحد ينوب عنه في محاسبة من خلق؟.

بتّ أصدّق أولئك البشر الّذين يعيشون خلف المحيط، في اعتقادهم أنّ المسيح قُتل لأنّه أراد إقامة العدل بين شعوب الأرض، وأنّه رسول من عند الرّب من فوق السّماوات، ها نحن الآن أحفاد القتلة نجني ثمار ذنوبهم. على كلّ لا أعتقد أنّ العدل سيقوم يوما على هذه الأرض، نحن المظلومين هكذا أريد لنا، أن نصبح عبيدا للأقوى ولو بإرادتنا المشبوهة ، نلعن دائما حياتنا في داخلنا ، ونخشى أن نلعن الأشخاص الّذين سببوا لنا هذا العفن المترسّب في صدورنا...

وقد انطبق مؤشّر الثّواني على مؤشّري الدّقائق والسّاعات كخطّ واحد عند السّاعة الصّفر، بينما توماس غارق بين دفّتي كتاب "الحياة الخفية للقدّاس" ، دقّ جرس السّاعة الكبيرة المعلّقة على الحائط المقابل لمكتب الحراسة ، رفع رأسه نحو الأعلى وهو يتمعّن عن كثب السّاعة و ينصت إلى جرسها ، وكأنّ قلبه يحدّثه عن مكروه ما يحيط به ، فتح الدّرج العلويّ للمكتب وقام بتمزيق جزء من

جريدة قديمة ، طواها على أربعة أوجه ثمّ وضعها بين الصّفحتين مائتين ومائتين وواحد ، نظر إلى تلك العبارة الّتي تسبق فاصلة آخر ما قرأه " رغم ذلك إلاّ أنّ ذكر أولئك القدّاس بمكروه يجلب الشّؤم والمعرّة لنا جميعا نحن الباحثين عن الحقيقة،" ثمّ أغلق الكتاب ووضعه بين ركبتيه.

كان جرس السّاعة قد دقّ للمرّة العاشرة ، قام توماس من مكانه وقد وقع الكتاب أرضا ، وما إن اكتملت الدّقات الاثنتي عشرة ، حتّى سمع دويّ انفجار اهتزت له الأرض اهتزازا ، وأزّت السّاعة من على الجدار أزّا ، وانفجر المصباح بعد أن ارتطم زجاجه بالسّقف.

دبّ الذّعر في قلبه كونه المسؤول عن مداولة الحراسة لهذا اليوم عند مدخل البوابة. قرع جرس الإنذار الكبير، ما هي إلاّ دقائق حتّى اجتمع الجنود والضّباط ونائب رئيس الكتيبة في ساحة الثّكنة ، قدّمت تعليمات مباشرة لمحاصرة الجدران والتّوغل في أحياء القرية وانتظار التّعليمات.

كان يوم أحاد باردا مظلما من الأسبوع الثّاني من شهر آذار، يعتبر هذا اليوم أسوء يوم بالنّسبة للجنود المداومين على الحراسة، كونه يوم عطلة، والوقت يمرّ فيه ثقيلا جدّا بسبب الفراغ الّذي يجده

الجنود داخل الثّكنة ، لذلك ومنذ أعوام ، وبعد تعوّد أعضاء الفرقة المناوبة على بعضهم صاروا منقسمين إلى فرقتين أوثلاث، يتناوبون على الحراسة كلّ ثلاثة أشهر بالنّسبة لكلّ قسم من الكتيبة ، رغم علم الضّباط المناوبين بالأمر، إلاّ أنّهم تركوا لهم الحرّية ما دامت الأمور تسير بصفة عادية ، والأوضاع داخل الثّكنة وخارجها هادئة وآمنة.

لكن لا أحد من الفرقة طرأ على ذهنه أمر استهداف الثّكنة العسكريّة.

بعد ثلاثة أيّام:

. سيّدي المريشال إمنوال ، قائد الكتيبة الرّابعة الضّابط أرثر يستأذنك للدّخول.

. فليتفضّل...

. سيّدي المريشال طاب مساؤك ، قد أنهيت كافّة التّقارير المطلوبة منّي.

. يمكنك عرض أهمّ الأحداث...

– بتاريخ الرّابع جوان من سنة 1844 ميلاديّة وعلى السّاعة الواحدة وثلاثة وأربعين دقيقة ، باغتت مجموعة من المتمرّدين الأفارقة الجنديّ توماس جون ريش التّابع لفرقتي المناوبة وهو يزاول الحراسة اللّيلية عند البوابة رقم ثلاثة ، وقاموا بزرع قنبلة تقليديّة الصّنع قرب برج المراقبة رقم سبعة ، وببعد يقدّر بأحد عشر مترا عن المدخل الرّئيسيّ ، وقد أصيب الجنديّ غاسون أوبيس بجروح من الدّرجة الثّالثة ، و أدخل المشفى العسكريّ ، أمّا الجنديّ المكلّف بحراسة البوابة الرّئيسيّة فلم يصب بأيّة جروح ....

. وهذا الّذي يثير غضبي حضرة الضّابط أرثر ، لم يصب رغم انهيار السّقف وتشقّق الجدران ، ما يدلّ على أنّه لم يكن وقتها بمركز الحراسة رفقة الجنديّ المصاب. المعروف عن هذا الجنديّ تخاذله وتمرّده... قد جنّبته الوساطة ومكانة والده الكثير من العقوبات ، القوانين العسكريّة صارمة سيادة الضّابط ولا تحتكم إلى العاطفة ، ثمّ ماذا ستقول الصّحف؟ لم يكن القانون صارما في حقّ الجنديّ المتهاون بسبب وساطة والدته أو لضبطيّة والده المتوفّى، ثمّ

أين كنت وبقية أفراد الفرقة ؟ ألم يكن حريّا بكم أن تلزموا أمكانكم دون خلق قانون داخليّ يخدمكم؟.

عصا القانون ستوجه نحو رأسك مباشرة حضرة الضّابط أرثر، فتركنا لكم مجالا للتّنفس هذا لا يعني أنّنا غافلون عن ردعكم ، ولا يعني أن تتاموا خلف أعين القانون ، إن نسامح فالقانون في الأخير له قول لا يردّ.

هيّا انصرف...

. لا أريد أبدا أن أوهم نفسي بأحداث تتجلّى فقط في الخيال ، ولا أحبّ أن أحفر داخلي ذلك الفراغ الّذي تتربّى فيه لاحقا أحلام زائفة ، أريد أن أكون أنا في واقعي وأنا في داخلي ، جسم منسجم مع ذاته ، لا أريد أن أخدع نفسي وأخدع النّاس بأنّي سلطان لا يقهر، لكن في داخلي عبد ذليل لا يُظهر حقيقته إلاّ في الظّلام وهو يبكي ذليلا ورأسه محشوّ تحت وسادته ، يمسك أنفاسه من أن تُسمَع خارج حجرته فيُدرَك ضعفه ، لماذا نحن البشر لا نصدّق أنفسنا؟ ولماذا ظاهرنا مزهر وباطننا مقفر؟

لماذا نخشى نحن الفرنسيّين أن نقول بأنّنا نظلم أولئك الـ...

. اصمت يا توماس ، عسى أُذن تلقف كلامك خارجا ، عدني يا بنيّ أن لا تتفوّه بكلمة واحدة بعد قرار الطّعن ، سيكون كلّ شيء بخير ، لأجل وطنك ولأجلي ولأجل إلينا.

. أهاه ...إلينا ستجنّ إن علمت أنّ قرار المحكمة العسكريّة سيكون نافذا لا محالة، وأنّ عليّ إلغاء مراسيم الزّفاف وحزم أمتعتي والمغادرة نحو إفريقيا.

. لا تستبق الأمور، لا تنس أنّك ابن ضابط كانت له مكانة في قلوب الشّعب الفرنسيّ، وأنّه قد غدر به وهو في ساحة القتال، فلربّما المحكمة العسكريّة تأخذ مكانة والدك بعين الاعتبار فتحجب هذا القرار بعد الطّعن.

. النّظام قلبه صلب ولا يحكم أبدا بالعواطف يا ماما ، إن تغاضت المحكمة العسكريّة سابقا عن معاقبتي فهذا بسبب وساطتك ، وحتى تجاوزاتي كانت بسيطة لم تؤذ أحدا ولم تخرق النّظام ، كما فعلت هذه المرّة.... تبّا لتلك الوصايا الّتي تحمّل الأشخاص ما لا

يطيقون، كيف فكّر ذلك الجدّ حينما قرّر توريث الوصايا الفاسدة بدل ميراثه وأمواله الطّائلة الّتي أصبح يستفيد منها عامّة النّاس؟ ألم يفكّر في أنّه سيكون له يوما ما حفيد يبغضه بعدما أفسد أحلامه؟

. جدّك كان رجلا صالحا ، يقصد مجالس الكهنة حتّى أصبح واحدا منهم ، وأصبح اسمه رمزا للكنيسة الكبرى وقاعة العبادة ، أميدس ذكرى خالدة لأفعاله الخيريّة...

. آه، لقد صدق ليورسيس بشأن هؤلاء النّسّاك حين شبّههم بالسّراب الّذي تنخدع به أعين النّاس ، ماذا ترك لنا هذا الرّجل الصّالح غير وصيّة قيّدت حياة ذريّته إلى الأبد؟.

. لا تشغل بالك كثيرا يا بني ، واترك كلّ شيء لوقته ...آه أظنّه طرقا على الباب، أكيد هو ساعي البريد كالعادة يضرب الباب برجله، لعله يحمل فرحا ما...

. وأيّ فرح يحمله ذلك المجنون ؟!.

– السّيدة فيكتوريا جون ريش؟ ... ظرف بريدي مستعجل لابنك توماس.

أخذت الظّرف شاكرة ثمّ أصفقت الباب خلفه وراحت تقلّبه في عجالة ، على ظهره عبارة " تسليم خاصّ"، وعلى جانبه العلويّ مختوم "مستعجل" من دون أن يحمل أيّ طابع معيّن.

مزقت حافّة الظّرف و استخرجت الورقة الّتي بداخله ، ثمّ رمته على الأريكة.

فتحت الورقة وأخذت تتأمّلها بدقّة ،أعادت قراءتها للمرّة الثّانية وهي تعض شفتها السّفلى.

طوت الورقة على أربع ثمّ خبّأتها تحت سرّتها وسارت بخطوات متأنيّة ، كانت الفكرة الوحيدة الّتي استطاعت تكوينها وهي ترى ابنها يحدّق في عينيها بفضول ودهشة "الحياة محطّة لاكتشاف أفكار جديدة ، لابدّ لنا أن نمعّن النّظر في تجارب الآخرين حتّى نصل إلى ذروة المعرفة".

كان توماس غارقا في تصفّح كتاب "ما هي الملكيّة ؟" حينما سمع وقع خطى والدته ، أنصتَ بإمعان لكلامها ثمّ أغلق الكتاب ووضعه بين يديها هامسا في أذنها: "صاحب هذا الكتاب كان في شبابه يحتاج إلى جزمة كي يسير في الطّريق ، وحين أدركت الحكومة عبقريته تكفّلت به ، لكن سرعان ما طالبته بالجزمة وبكلّ ما أنفقت عليه حينما كشف عن حقيقة الطّبقة المتسلّطة علينا، وحينما عجز عن ذلك لاحقته بتهمة إثارة الفتن ، لذلك إن أمعنّا النّظر في تجارب الآخرين قد نسيء للسّلطة ، الحكومة تريد شعبا جاهلا يبحث عن ملء وعاء بطنه لا وعاء عقله ، لم يعد يهمّني أين سيلقون بي عدا الدّمعة الّتي ستذرفها عين حبيبتي إلينا حَزَنا على تأجيل موعد زفافنا إلى موعد غير معروف..."

. أهلكت عقلك هذه الكتب يا توماس ، فكّر في حياتك ، كن واقعيّا والتمس الصّفح تكرّما بوالدك وجدّك ، فمستقبلك أولى بالرّعاية من هذه الأفكار المسمومة الّتي أتلفت عقلك.

. مبادئي أولى بالرّعاية ، أنا لا ألعق أصابع المفسدين ، بل وإن أتيحت لي فرصة سأقطعها... جهّزي لي حقائبي واطلبي من خادمتك صوفيا إحضار إلينا مساء الغد.

02

رأيت أناسا – أكاد أعرف معظمهم بسماهم – يتحلّقون حول نارٍ ترتفع ألسنها الزّرقاء فوق رؤوسهم ، كنت شاخصة بصري على مسافة قريبة جدّا ، بدوت من بينهم مثل الخيال ، حيث كان بعضهم يمرّ بجانبي من دون أن يتحسّس وجودي ، عمدت إلى الصّراخ ومحاولة لمس أجسامهم ، لكنّ يدي كانت تخترق أجسامهم مثلما تخترق الشّمس جلباب الصّبح دون إحداث ضجّة أو ضرر على الطّبيعة ، حينها عرفت أنّني صرت مثل ملاك يراقب أعمال النّاس من غير أن يتحسّسوا وجوده . شعرت بلذّة كبيرة للطّارئ الّذي حلّ بحياتي ، تكاثر الحشد الّذي صار يرمي النّار بجُذذ الخشب وهي تلقف ما يرمون في نهم ، فيزيد ارتفاعها فوق رؤوسهم ، اتّسعت حلقتهم بفعل الشّرر المتطاير والحرّ الّذي أحدث بجباههم خيوطا من العرق ، كان حماسهم شديدا لعظمة النّار، حتّى إذا نفذ الخشب ولم يجدوا ما يغذّون به نارهم أسرعوا إلى ثيابهم يمزقونها

عن أجساد بعضهم ، ويرمون بها نحوها ، وما إن بدا عريهم صاروا ينظرون إلى ملامح بعضهم ويصيحون من يفدي قداسة نارهم ، وهم في هذا الاضطراب والانفعال إذ صاح من بينهم رجل وهو يشير بيده إلى مكان بعيد : " قد منّ الرّب على نارنا ، إنّه الفداء... إنّه الفداء " ... لمحت في دهشة غبارا عظيما كان كسحابة سوداء توصل بين الأرض والسّماء ، تقترب نحو النّاس المتحلّقين حول النّار، وما إن زال الغبار واتّضحت الرّؤيا تراءى للحشد أشخاص يمتطون أحصنة سوداء ، وخلف كلّ حصان عربة يجرّها يظهر أنّ عليها شيئا ما مغطّى بلحاف أسود ، وقد تشكّلت علامات الخشونة والفظاظة على ملامح الفرسان لحظة وصولهم إلى الحشد وهم يتطلّعون إلى ألسنة اللّهب والرّجال العراة ،حينها أومأ رجل كان يتقدّم الفرسان إلى الحشد بأن يتحرّك ، فتسارعت الخطى، وتعالت الصّيحات ، وهمَّ كلّ واحد نحو العربة يجرّ الرّداء الأسود ، وقد كُشفت لحظتها أقفاص حديديّة ، اتّجهت كلّ الأعين صوب الرّجل الّذي في المقدّمة ، وقد أيقنت لحظتها أنّه قائدهم ، فأومأ إليهم من

جديد برأسه ... فتحت أبواب الأقفاص وأخرج كلّ رجل جسدا، أدركت حينها وأنا أتابع أحدهم وهو يسحبه على الأرض أنّها جثّة إنسان قيّدت أطرافها ، فسارع الجميع نحو النّار الّتي تخبو ألسنها شيئا فشيئا، وصار كلّ واحد يرمي على حوافها الجثّة الّتي بين يديه ، وحينما أنهى الجميع مهامهم قفز القائد على الأرض وسار مسرعا نحو العربة ،لكن فوجئت أنّ لون الرّداء الّذي كان يغطي القفص أبيض ناصع عكس بقية الأقفاص ،وما إن جرّه وأخرج الجثّة ورماها على الأرض حتّى شعرت بضيق شديد داخلي ، فرحت ألهث نحوه كالمجنونة أترجّاه أن يدع الجثّة وشأنها ،أحسست أنّ حبال صوتي تمزّقت دون أن يصل حرف ممّا نطقت إلى أذن الرّجل ،وأنا أحاول أن أمدّ يديّ بقوّة نحوه ،شعرت وكأنّني أخاصم الرّيح ،سار الرّجل بالجثّة يسحبها وأنا أسمع صوت هتاف الرّجال يزداد حدّة ،أثناءها ارتميت على الأرض محاولة التشبّث برِجل الجثّة ،لكن لم تلقف يدايّ سوى الفراغ ،وقد ضاق نفَسي أكثر وأنا أشعر بوخز حبيبات الرّمل داخل حلقي ،لحظتها تكوّنت غشاوة حول بصري حالت دون

التّطلّع إلى ما حولي ،فجأة شعرت بحرّ شديد يطوّق كامل جسدي... ،حينها قمت مصدومة من فراشي وكأنّي حقّا عشت المشهد في واقعي.

. كم تكرر معك هذا الحلم؟

. أظنّه للمرّة الرّابعة.

. هل كان متسلسلا ؟

. لا ... متقطّعا ، بالكاد أنسى فزعه حتّى يعاودني من جديد.

. هل لك حبيب تخشين عليه من أقربائك؟

أومأت إلينا برأسها ثمّ أردفت قائلة :

. لكنّ توماس لا أخشى عليه من أحد.

. ما يدور في أعماق البشر لا يمكن أن تعكسه وجوههم ،لذلك لابدّ لك من الاحتراس ممّن حولك ،قد يكون كلامهم المنمّق مجرّد مصيدة للإيقاع بك.

. ماذا أفهم من هذا؟ أظنّك تحاولين توليد عداوة بيني وبين أقربائي ،أنا قصدتك لتفكّي لغز حلم رأيته لا لكي تملي عليّ ما تحمله أفئدة النّاس، كما تفعل قارئات الفناجين.

قامت إلينا من مكانها وهمّت بالخروج من الخيمة ،ثمّ استدارت غاضبة :

. اسمعي أيتها الغجريّة مايورتا لطالما مدحتك ،وأنا أسمع أنّ أنظمة دول عديدة صارت تتعقّب آثاركم لتفتك بكم.

. غدا الرّابع والعشرون من شهر مايو، وهو يوم الحقيقة المبارك ،لذلك لا أريد أن أعكّر مزاجي بصراخك الآنسة إلينا ،كما يمكنك في الغد أن تخرجي وتطلّعي في ملامح الوفود الّتي وصلت ساحة سانت ماري ديلامير ،لا أحد منهم يحمل عداوة لأحد ،كلّهم سيبتسمون لكم رغم كدر الحياة والأعين الحاقدة الّتي ترصدهم من مكان إلى آخر ،نحن لا نمتلك الأرض ولا نسعى إلى ذلك، لأنّ هذا سيقيّدنا كبشر، خلقنا لنكتشف الحياة ، لكن بالمقابل نمتلك حرّيتنا الّتي نفخر بها دائما ، أبحرت في حلمك لأفكّ تلك الألغاز الّتي

أرهقتك لأيّام ، ولم أخادعك فيما قلت ولم أطلب ثمنا لاجتهادي ، أنا مفسّرة أحلام ولا أمتهن قراءة الطّالع ...

أخذت إلينا نفسا عميقا ،مدّت يدها إلى الوشاح الّذي سقط من عنقها ، وقد علق الكلام بحنجرتها وهي ترى وجه العجوز الغجريّة يسقط أرضا خجلا من نظرتها الغاضبة ، فكّت خيط الكيس الموصول بحزام سرتها ، فتحته ورمت قطعتين نقديتين في حجرها ، ثمّ انصرفت وهي تحدّث نفسها: لا أعلم لم حملتني رجلاي إلى هذا المكان المقرف ،هناك في تلك الدّور رجال يتاجرون بالدّين وهنا نساء في الخيام يتاجرن بالأحلام وعواطف البائسين.

ظلّ كلام الغجريّة يتردّد في ذهن إلينا طيلة سيرها نحو البيت ، ثمّ شعرت أنّ تعنيفها لها بتلك الطّريقة تصرّف غير لائق يستوجب الاعتذار ،حتّى وإن كان كلام هؤلاء دجلا فاللّوم يقع على من يقصدهم، والكلّ يدرك أنّهم يعيشون على مصائب النّاس ، ويجعلون من المشكل التاّفه عقدة تستلزم رعاية خاصّة لفكّها ،وكلّ جلسة في خيمتهم تزن مقدارا من المال أو الذّهب ، فلم نحاسبهم

وقد أتاحت لهم الحكومة كامل الحرّية لاستغلال سذاجة شعبها ؟
هم لم يقصدوا بيتا ولم يتوسلوا أحدا أن يعطيهم ، فقط لهم قدرة خفية في استغباء عقولنا ورمي نرد الحظّ أمامنا حول ما يخفيه المستقبل ، فلا أحد يمكن أن يكذّبهم وهم يتحدّثون عن الغد ،لأنّه وببساطة لا أحد منّا يمكنه التقاط صورة غيبية وعرضها في الحاضر ، وإلاّ أصبح كلّ واحد منّا يفرّ من قدره .

توقّفت للحظة وألقت ببصرها نحو المسافة الّتي قطعتها ثمّ رفعت رأسها نحو السّماء ، كان الرّذاذ الّذي ينبعث من السّحب الرّماديّة يتراقص حسب إيقاع الرّياح ، حاولت إطفاء شرارة ضميرها الّذي يلحّ عليها العودة والاعتذار من العجوز : أكيد فرحت العجوز بالدّينارين اللّذين قفزا إلى حجرها ونسيت تعنيفي لها. السّماء ستتفجر مطرا ،لابدّ من الإسراع إلى البيت.

في لحظة ختمت حديثها مع نفسها وأقنعتها بأنّه لا طائل من العودة والاعتذار ، وقد أخذت العجوز نصيبها عن دجلها.

بينما إلينا تستعد لفتح باب الحديقة الخارجيّ ، كانت العاصفة قد احتلت مدينة مرسيليا ثّم مرّت سريعا ، رمت بنظرها نحو السّماء وهي تشاهد كتل الغيوم تزحف سريعا ، ألقت يدها على ذراع الباب واستندت إليه ، بينما لا يزال نظرها معلّقا نحو السّحب المتسارعة ، أين تلاشت كثافتها وأصبحت تمرّ على الشّمس كورق شفّاف يبدي قرصها المتوهّج ، شدّت قبضتها على ذراع الباب وفتحته بقوة حتّى اصطدمت حافته بظهر الحائط .

. اللّعنة ، وكأن شؤم تلك الغجريّة يلاحقني .

. السّيدة صوفيا تنتظرك منذ ساعتين –قال الخادم العجوز جوني وهو منهمك في رسم الأحواض حول أشجار الحديقة–

. ماذا تريد في هذا الوقت؟

. ليس من عادتي الدّخول في حوارات مع النّساء خاصّة الخادمات ، لم أعد أطيق غيرة لورا.

ردت إلينا بتهكّم :

. وكيف عرفت أنّها تبحث عنّي ؟ ثمّ لماذا تقلّب التّربة ونحن في أواخر الخريف؟

رفع العجوز رأسه مغتاظا ورفش المجرفة بقوة في التّربة ،ثمّ راح يجول ببصره نحو الأشجار.

. انظري إلى الأغصان العاريّة ،وإلى تلك الأوراق الشّاحبة ،تطلّعي إلى الفراغات في جوف كلّ شجرة ، لماذا لا نكسوها بحلّتها الخضراء كما نحبّ نحن أن نكسوا أجسادنا بأجمل الثّياب.

حوّلت إلينا بصرها نحو السّماء وهي ترمق فِرقًا من طائر الكركي، وقد اتّخذت سبيلها في السّماء سربا ، ثمّ تطلّعت في وجه العجوز و قد فتح فاهه وثبّت بصره نحو أسراب الطّيور.

رمت إلينا خطواتها نحو البيت وهي تحدّث نفسها : كيف أدركت الطّيور أنّ موعد هجرتها قد حان وقد أوشك الخريف على نهايته ، ولا يدرك هذا العجوز الأحمق أنّ الأشجار تغيّر حلّتها عند كلّ خريف ؟ .

من المحزن أن يفقد الإنسان عقله لتصبح عادة الحيوان أكثر عقلانية من تفكيره ، صار البيت يورّث المجانين بعد أن اختفى أنطوان إثر جنونه ،هاهوذا العجوز جوني ينتهج سبيله.

. إلينا، أهلا ... مرت ساعتان على انتظاري لك ، يبدو أنّ العاصفة أجبرتك على التّأخر.

. أهلا صوفيا ، ليست العاصفة وإنمّا تفكيري السّيئ.

. كيف ؟

. لا شيء يستحق الشّرح . ما سبب انتظارك؟

. يبدو أنّك مستاءة من العاصفة المفاجئة الّتي بلّلت ملابسك.

. لماذا أنتم الخدم تثرثرون دائما في أشياء لا تهمّكم ،هاتي ما عندك أو انصرفي.

. لا بأس سيّدتي ، السّيدة فكتوريا تقول أنّ توماس يريدك حالا في أمر مستعجل.

. أمر مستعجل ؟ أيّ أمر هذا؟

. أنا لا أثرثر في أمور لا تعنيني سيّدتي.

. طيّب ، اذهبي وسألحق بك .

. تقول السّيدة فكتوريا يجب أن أرافقك.

. إذن تابعي انتظارك ريثما أغيّر ملابسي .

03

. يبدو أنّ صوفيا غرقت في الثّرثرة مع خادمات السّيدة ليندا ، ونسيت الأمر الّذي أرسلتها لأجله.

. لا تسئ الظّن يا توماس ، لم تعتد صوفيا السّهو عن الأمور الجديّة والطّارئة ،ثمّ لا تنس أمر العاصفة ،ولنقل مثلا أنّها لم تجد إلينا في البيت ،وهي باقية تنتظر قدومها ، خصوصا أنّني طلبت منها أن لا ترجع إلاّ برفقتها.

كانت السّاعة على الحائط تمتصّ صبر توماس وهو يرمقها بين الفينة والأخرى ، قطع حديثه مع والدته وأسند رأسه إلى كفّي يديه المثبتتين على ركبتيه وغرق في أفكاره ،وكأنّه يحمل همّ كوكب بين يديه ،أحلامه الّتي تنفر منه بعد أن استطاع حملها من خياله إلى واقعه ، كان نفَسها قصيرا ولم تستطع الانسجام مع حياته الّتي

يشاركه في تسييرها خلق آخر ، نعم هذه الأفكار الّتي تدور بعقولنا مثل البشر على سطح الأرض إن لم يحسنوا تسيير ذواتهم وانسجامهم مع بعضهم تشرّدوا دون أن يجدوا هدفهم من الحياة .
الفرح ، المحبّة والنّجاح أظنّهم يشكّلون مثلثا لحياة مثالية يطمح إليها أيّ بشريّ يرغب في تعبيد طريق عمر هادئ وهانئ ، لكن لن يتمكّن من رمي خطوّاته بين زوايا هذا المثلّث المقدّس إن لم يتمتّع بالحرّية المطلقة في سيره ،فالحرّية في أفكارنا كثيرا ما تصطدم بأفكار آخرين لهم السّلطة على واقعنا ،لكن رغم اعتراضهم إلاّ أنّنا نحن من لم ننفخ روحا قويمة في أجساد أفكارنا ، فأصبحت هشّة أمام أجساد نفخت فيها أرواح ظالمة استطاعت صدّها بسهولة ، ما سوف نندم عليه يوم نملأ عقولنا بالتّجارب الفاشلة ووجوهنا المخطّطة بالحزن والتّعاسة ،هو أعمارنا الممتلئة بالخيبة ،والفارغة بالأوقات الّتي رسمناها في خيالنا ومحوناها سريعا في واقعنا خوفا من أن تضيع حياتنا الّتي اكتشفنا أخيرا أنّها ضاعت ، فننفجر غيظا وقد شاخت أرواحنا ، ليتنا تمرّدنا على من تسبّبوا في تحطيم

أفكارنا . وكأنّني هناك في ذلك العمر البعيد أجلس على حافة الهاوية أنتظر شهقة ترمي بي إلى عمق الموت ، أحصر رأسي بين يدي وأصرخ في أعماقي . جرّبت كثيرا تقليب أوراق حياتي لكن نسيت أنّنا نعيش حياة واحدة فقط ، ولا يمكننا أن نطلب حياة أخرى لأنّنا لم نجسّد الأفكار الّتي كنّا ننوي أن نعيش بها في الواقع ،كم مرّة حدّثت نفسي: أنّ الحياة لا تجرّب كما يقولون ، فحياة كلّ واحد لصيقة بجسده ، تولد لتشقّ سبيلا على هذه الأرض ثمّ تشيخ وتنقضي، ما يمنعنا إذن أن نصوّبها ناحية الأفكار الّتي نطمئنّ لها ؟ لماذا لا نعيش لأجْل الذّود عن فكرة من أفكارنا؟ بينما نجتهد ونجهد أنفسنا لأجل الدّفاع عن أفكار نحتقرها في داخلنا ، ثمّ نسكت ضمائرنا بحجّة أنّ الحياة ستقسو علينا إن انفردنا بأحلامنا ، ماذا لو جرّبنا يوما الوقوف لصالح أفكارنا وتجاوزنا أفكار الآخرين وآراءهم كيفما كانت ؟ ونعطي لحياتنا قدسيّتها ؟ ونأذن لعقولنا تشييد أفكارها في الواقع؟ يومها حتّى وإن حوربنا ومتنا ذودا عن

أفكارنا سنحمل لذّةً في حياتنا دون أن نشعر بخيبة الحياة مثل ذلك الشّيخ الجالس عند حافتها حزينا على ما أضاعه ، لكن ...

أحسّ توماس بجسده وهو يتأرجح من زاوية إلى أخرى ، وأصوات متداخلة تقفز إلى أذنيه من غير أن يستوعبها ، أحسّ أنّ روحه معلّقة بين واقعه وخياله ، تحاول التّشبث بطرف عميق في ذهنه كي تتصبه في الواقع ، لكن سرعان ما فشلت وطارت في ذهول وهي تشاهد اتّساع المدى بينها وبينه ، إلى أن اصطدمت بسجنها الضّيق الّذي أرادت الفرار منه . استيقظ توماس من حلمه الّذي فرّ به بعيدا وهو يحدّق في الوجوه الّتي تحلّقت حوله مستغربا نظراتهم وأصواتهم ، نظر إلى اليد الّتي تمتدّ نحو جبهته حاملة قطعة قماش ، فتعصرها على جبهته حتّى تمتد خيوط من الماء البارد حول ناظريه فتطوّق رأسه الّذي أصبح ككرة ملتهبة، ثمّ تعود بها إلى الوعاء شبه جافة ،رفع بصره نحو الوجوه الّتي حوله ، وقد علّق بصره على ملامح إلينا وهي ترفع قطعة القماش من جبهته، رمى

يده حول معصمها وهو يحاول القيام من مكانه، لكن سارعت إلينا وضغطت على كتفه.

. حاول أن تريح ذهنك يا توماس ،ألم تقل لي دائما أنّ الحياة ستتأزّم أكثر إذا تعمّقنا في تفاصيلها؟

كانت السّيدة فيكتوريا قد أطلعت إلينا على حادثة الثّكنة ، بينما توماس في عالمه الثّاني يصارع حلمه . لمدّة ساعتين لم تتبس إلينا ببنت شفة ، ظلّت تفرك يديها وتستمع في صمت ، كانت السّيدة فيكتوريا تحاول جذب إلينا بأسئلتها ، فتصمت وهي ترى إلينا غير آبهة لسؤالها ،ثمّ تجيب على نفسها وهي تتفقّد بعينيها ملامح توماس ، وحينما اتّسعت رقعة الصّمت بينهما ، نظرت إلينا إلى السّيدة فيكتوريا مبتسمة من طرفي شفتيها ، ثمّ قامت وربتت على كتفها قائلة :

. أعلم جيّدا كيف يفكّر ، لذلك أحببته ، الرّائعون هم من يفكّرون عكس الآخرين حينما تغريهم كثرتهم ، بينما ضمير كلّ واحد منهم يصدح بما يفكّر به هذا الشّخص ، لذلك أخاله يسكن في عمق كلّ

واحد منهم، بينما هم يسكنون عقول أسيادهم ...لا تخشي على توماس ، وذلك لأنّه صادق مع نفسه وواقعه.

قد حفر الخبر الّذي تلقّته إلينا لتوّها عن نقل توماس كرها إلى "الجزائر" ذاكرتها ، كانت كلمّا ذكرت السّيدة فيكتوريا "الجزائر" تتشكل في ذهنها صور لم تعد تحسن تمريرها بوضوح بعد أن تشبّعت بماء النّسيان وتشوّهت ملامحها ، فكانت كلّما حاولت تشغيل ذاكرتها من جديد تخيّلت صورة جدّتها من أمّها الّتي فقدتها منذ ما يقارب التّسع سنوات ، أسندت رأسها إلى كتف توماس وأغمضت عينيها ثمّ راحت تحدّث نفسها وكأنّها تخاطبه : أظنّهم سيذهبون بك إلى موطن جدّتي نفسه ، أتذكّر يوم كانت تزورنا فيصير حضنها بيتي ، أكاد لا أفارقه وأنا أشعر بلذّة غريبة تسري في جسمي ، به دفء كنت أفتقده حتّى في حضن أمّي ، كنت أقاوم التّعب حتّى لا أغفو قبل أن تنتهي حكايتها كلّ يوم ، وحينما أصبح أجدني أتطلّع برأسي إلى ما حولي ، فأدرك أنّني وحيدة دونها ، فأرمي برأسي على الوسادة محاولة إعادة شريط حكايتها من أوّله،

وحينما تتقطع الأحداث أتذكّر أنّني غفوت دون الوصول إلى نهايتها ، حينها ينتابني ضجر وأبدأ بالصّراخ حتّى أجدها واقفة عند رأسي تحاول تهدئتي ، فأنظر إليها بغضب قائلة : قلت لك : لا تدعيني أغفو قبل أن تنهي الحكاية ، فتجلس قربي وتعيدها من أوّلها إلى آخرها . كنت أشعر بوحدة موحشة حينما تسافر ، ألحّ عليها أن تصحبني معها إلى موطنها فتقول: أنت ملزمة بالدّراسة ، سأعود إليك حينما تشتاقين إليّ أكثر ، اللّحظة تتشكّل في ذهني بعض الذّكريات الجميلة الّتي تسكن عميقا ، استدعى إيجادها حضور من مثّل لحظاتها . صبيحة كّل يوم وقبل ذهابي إلى الدّوام المدرسيّ ، كانت تحمل جسمي النّحيف وتضعه في حجرها ، تبدأ بتمشيط شعري فتعزل خُصلات منه ثمّ تضفرها وهي تتمتم ببعض الكلمات المبهمة ، وحينما أسألها عن معناها ، تبتسم قائلة : هذه الأغنية عربيّة يهتف بها النّاس أثناء مرور موكب الدّاي وسط المدينة ، سألقّنها لك حينما تكبرين وتسافرين معي ، وما إن تنهي حتّى

تضغط على خديّ بكفيها وتقبّلني ثمّ تهمس في أذني : ماء الحسن الّذي يملأ وجهك هو عربيّ خالص .

لا أعلم ماذا حدث بعد سفرها الأخير ، ظلّت أمّي في ثوب حدادها لمدّة أسبوعين وهي غارقة في وحدتها، سألتها في تلك الفترة وأنا لا أدرك معنى الحداد و لباسها الأسود ، فقالت : جدّتك لن تزورنا مجدّدا ،جدّتك غادرتنا إلى الأبد يا إلينا ، شاركتها حزنها لأيّام رفضت خلالها الذّهاب إلى المدرسة ، أفقدتني تلك الكلمات الّتي ألقتها والدتي في أذني شهيّة الأكل ، وحينما أضع رأسي على الوسادة ترتسم أمامي ملامحها الحزينة ثمّ تطأطئ رأسها وتلوّح لي بيدها وتختفي ، فأقوم مذعورة تكاد أنفاسي أن تتوقّف ، فأجدني بين ذراعي والدي الّذي كان يقدّم لي رعاية خاصّة ، أتذكّر قوله لوالدتي يوم عاد بي من عند طبيب نفسيّ : إلينا نفسيتها متعبة جدّا ،وقد أوصى الطّبيب بالعناية بها عناية خاصّة ، وأن لا نظهر لها أمرا يذكّرها بجدّتها .

– اللّوم عليك فما كان يجب إخبارها ، وحتّى حدادك هذا زائد على اللّزوم، أوليست ثلاثة أيّام كافية لتنزعي عنك ثوب الحزن هذا وتعودي إلى حياتك الطبيعيّة؟.

لقد عصف هذا الكلام بقلب والدتي ، إذ أنّني لم أشهدها من قبل بتلك العصبيّة وهي تحدّث والدي.

– يكفي أنّها الوحيدة الّتي لم تتخلّ عنّي بعد زواجي منك ، رغم مرضها لم تقطع زيارتها لي ، كنت أشمّ فيها رائحة وطني وأبي وإخوتي ، من سيفرغ من قلبي حنيني إليهم بعدها ؟ أم أنّك تشعر بالغلبة بعد أن قطعت كلّ وصالٍ بأهلي ؟ فلولا إلينا بيننا لعدت إليهم صاغرة طالبة عفوهم ، منذ تلك الحادثة أصبحت علاقتهما باهتة ، بالكاد يجتمعان حتّى يعودا إلى الخصام ومقاطعة بعضهما.

04

في صبيحة اليوم الموالي استيقظت السّيدة فيكتوريا قبل الجميع ، كان نومها مضطربا ، بالكاد تغفو حتّى تستيقظ مفزوعة وهي تتذكّر سفر ابنها إلى مكان يجهل عنه الكثير. فما كان يشغل ذهنها طوال الليل ليس فقط سفره وإنمّا عصبيته الّتي تلغي أفكار الآخرين مهما كانوا.

هناك خلف البحر يجب أن تستجيب لأيّ أمر يلقى إليك وإلا أفسدت الخطّة ، فإن نجوت من عدوّك لن تنجو من قادة الجيش الّذين سيتّهمونك بالتّخاذل ، كانت تودّ أن يسمع نداء قلبها هذا وهي تقابله في فراشه بعينين متعبتين ، لطالما تدخّلت لتجنّب ابنها عقوبات قاسية بفعل تهاونه المستمرّ ، كانت تقابل قائد الثّكنة وهي تحمل في حقيبتها صورة زوجها الضّابط المغتال ، فتشهرها بين عينيه طالبة الصّفح عن ابنها، وهذا دون علم توماس بأمر وساطة والدته وسعيها إلى تخفيض عقوبته أو شطبها في كلّ مرّة عكس

أصدقائه ، حتّى في عقوبته هذه عملت السّيدة فيكتوريا جاهدة على إلغائها أو تخفيضها أو أن يجتازها داخل الحدود الفرنسيّة ، لكن باءت كلّ محاولات الاستعطاف بالفشل ، حيث تبرّأ قائد الثّكنة من قرار العقوبة و أصرّ على أنّه قرار فوقيّ ، وليس من صلاحياته مراجعته أو طلب إعادة النّظر فيه ، واقترح عليها في الأخير التّوجّه بطلب إعادة النّظر في الحكم الصّادر ضدّ ابنها إلى المحكمة العسكريّة ، قال هذا وهو يدرك أنّ المحكمة العسكريّة تصدر قرارات وفق قوانين مضبوطة على أفعال تصدر من المنتسبين إلى الوحدات العسكريّة، لكن ليس من صلاحياتها إعادة النّظر في قانون ينصّ على عقوبة معيّنة ، سوى أنّه كان يودّ أن تغلق الباب خلفها حتّى لا يرى وجهها ثانية ، لكنّ تمسّكها بطلبها جعلها تدقّ كلّ باب يشار إليه.

قصدت المحكمة العسكريّة وقدّمت نفسها على أنّها زوجة ضابط سابق ، بعد أن صدّت في الوهلة الأولى من قائد الحرس ، تقدّمت بطلب استعجاليّ للنّظر في قضية ابنها ، وقد أرفقته بنسخة من

البطاقة العسكريّة لزوجها ، اطلع الضّابط المكلّف برفع القضايا على طلبها ، ثمّ ابتسم بازدراء وخاطبها :

. القانون حجر أصمّ لا ولن يلين لأيّ خطاب مهما بلغت درجة العاطفة فيه.

. من حقّ أيّ مواطن فرنسيّ شعر بالظّلم أن يطلب إعادة النّظر في مثل هذه القوانين المسطّرة ، ثمّ هي ليست قوانين إلهيّة ، ويمكن ضبطها من جديد حسب مصلحة الشّعب.

. نعم قد تغيّر ، لكن ليس لأجل جنديّ متخاذل ...

كانت ستردّ بغضب لكنّ الضّابط قاطعها قائلا :

– ليس من حقّي المزايدة في الكلام ... أعتذر ... طلبك سيعالج قريبا وسيرسل إليك قرار المحكمة العسكريّة عبر البريد في أقرب وقت.

وهذا ما كان فعلا ، يوم ضرب ساعي البريد بيت السّيدة فيكتوريا يبلّغها رسالة مستعجلة ، يومها تأكّد لها ما قال الضّابط ، وقد

تملّكها اليأس فعادت بعد ساعات إلى مكتب قائد الكتيبة لتعلمه بالقرار الأخير للمحكمة العسكريّة ، عندها هزّ كتفيه غير آبه لكلامها.

. القوانين العسكريّة صارمة جدّا، سيّدتي ما باليد حيلة ، سيجد جنودا مثله هناك وسيعتاد على الوضع، وإن تخلّى عن طيشه، وأحرز نقاطا جيّدة في الخدمة أعدك أن أعيده إلى فرنسا وأقدّم طلبا لأجل ترقيته.

. قد يصعب عليه المكوث في جوّ لم يعتد عليه ، ويمكن أن يتسبّب في مشاكل تؤزم وضعه ، فعصبيته تزعجني أنا أيضا سيّدي القائد ، لذلك قصدتك.

. أعدك أن أوصي به خيرا وأن يستثنى من المهام العسكريّة الخطيرة ، فقط أوصيه أن يرفع من زمام حدسه . على تلك الأرض تنشب صراعات بين الفينة والأخرى ومن أطراف ومن الأطراف عديدة ، أخبريه أن لا يثق في أحد حتّى أولئك الّذين يدّعون الموالاة للجيش الفرنسيّ ، وأن يحتفظ بأفكاره الشّاذة لنفسه ، قد يكون طرحُها أمام

الجنود بمثابة تمرّد على النّظام العسكريّ ، والعسكريّ عندنا ينذر بالنّفي مرّة واحدة ،أمّا الإنذار بالنّفي للمرّة الثّانية فسيكون ...ما لا يتمنّاه ولا يرغب به أحد من الجند.

. ماذا تقصد حضرة القائد؟

. الأمر الّذي أقصده هو ذلك الّذي تتخوّفين منه في داخلك ... هو ابنك ،عليك أن تجدي طريقا إلى عقله كي تشطبي تلك الأفكار العرجاء داخله ، وكي تمنحيه نظاما لأفكاره يتناسب مع النّظام العسكريّ ، ذكّريه ببسالة والده علّه يستفيق ليكون قدوة له.

. أفكاره يعيش بها ، وموقن بأحقّيتها في نشر المحبّة والسّلام بين الجميع.

. أظنّ أنّك متأثرة بها أنت أيضا.

. إذن ما عساي أفعل ؟ .

. لا شيء ، أخبريه فقط أن لا يتأخّر عن الموعد المدرج في القرار، وأن يكون في الميناء قبل ساعتين من الوقت المضبوط .

كثيرا ما كانت السّيدة فيكتوريا تولي اهتماما كبيرا لحجج توماس وهي تلقي اللّوم على أفكاره، تصغي إليه حتّى ينهي كلامه ، ثمّ تبتعد عنه غاضبة ، لكن سرعان ما تعود إلى مراجعة أفكاره في خلوتها ، فيسود الاطمئنان فؤادها بعدما تلاشت سحب الشّبهات داخلها . وهكذا كانت في الغالب تستفزّه ببعض الآراء حتّى تفيض أفكاره ، ثمّ ما تلبث أن تجادله حتّى تراه منسحبا من أمامها يكتم غيظه ، كانت آخر مرّة تتطلّع في الزّاوية الّتي اعتاد أن يطالع فيها ،فترى مجموعة من الكتب بعضها مفتوحة ومقلوبة على وجهها، بينما عيناه تبحران بين دفّتي كتاب آخر ، تسأله عن الفوضى الّتي أحدثها بكتبه، وأنّ عليه إحضار كتاب واحد وإبقاء البقية على الرّفوف ، فيجيبها من غير أن يحوّل نظره نحوها محاولا عدم كسر تركيزه : هناك أفكار مترابطة بين كلّ هذه الكتب ، ثمّ إنّي أرى تناقضا بين أفكار المؤرّخ " ويليام ويندر" في كتابه "الطّائر الحرّ" الّذي سحب من جلّ المكتبات بعد دخوله السّجن ،وكتابه " الحقيقة لا تقال" الّذي أصدره بعد مكوثه أيّاما في السّجن ، ما يظهر جليا

أنّ السّلطة أفرغت دماغه وشحنته بأفكارها وبالكرامات الّتي أحاطته بها بعد أن غفرت ذنبه ، وها هوذا يبيع مبادئه لصالحها ، هم هكذا مثقفوا البلد يبيعون عقولهم ليستخدمها الحاكم ضدّ شعبه.

05

عدت بعد عمر استطال بي في التّيه ،عدت بكامل جسدي دون أن أفقد أيّ عضو كما كانوا يهدّدون ، بأن تدفن أعضائي متفرّقة على أرض بعيدة عن قلبي وأهلي ، رغم النّدوب وآثار الكيّ الّتي وزّعوها على جسدي، ذلك الخلق الّذي يتلذّذ بالقتل والتّعذيب ، رغم خطوط التّجاعيد الّتي شكّلتها حياة التّيه القاسية على معظم جسدي ،إلاّ أنني عدت به كاملا أحمل عليه تضاريس أرض تعلّمت فيها أن أكون عدوّا، إلاّ مع نفسي والمستضعفين...أن أكون جدّيا في نظراتي وقاسيا في معاملتي ... وأن أحمل من الحيل ما يكفي لكي أفلت من المكان الّذي يحاصرني فيه الوقت ... أن أحمل يقظتي معي أنّى كنت ... وأن أنام بعين واحدة وأترك الأخرى تحرسني وتحرس سلاحي الّذي أتشبّث به كأمل للخلاص من أعين العدوّ الّتي تترصّد تحرّكاتي ...عدت بعقل تشبّع بالنّضج ،أيقن معنى الإدراك وقراءة ملامح الخلق ، تسكنه تفاصيل أشخاص باعوا

حرّيتهم ومبادئهم خوفا من حياة بائسة ، وأشخاص آخرون باعوا حياتهم لأجل حرّية أرضهم ، ويحمل في عمقه نتوءات لسوط السّنين القاسيّة الّذي جلد أفكارا حملتها معي إلى ذلك الفضاء الّذي لا أنس فيه.

تركت خلفي – بعد أن رسموا لي طريقا في التّيه – قلبين أعيش بنبضيهما ويعيشان بنبضي ،يتفقّدان المستقبل القريب كي يحملني إليهما دون أدنى ضرر ، سرت وكأنّي أحمل أوجاع الأرض في قلبي نحو منفاي الّذي اختاره لي أولئك المتحمّسون لامتلاك أرض ليست أرضهم ، ترفّعت عن وداع تلك النّجمتين حينما رفعت حقائبي وسرت متوغّلا في الظّلام أسدّ صوت خطاي حتّى يلحق بي السّكون ، كنت مؤمنا أنّ الحياة داخلي تنبذ مصطلح الوداع ... تلك اللّحظة القاتلة تعادل الموت ، حينما تنهمر دموع من عمق وجداننا لترسم خطوطا على خدودنا بعد أيّام من الحزن والقلق ،وليال طويلة من الأرق ،حينما أنصت إلى صوت الذكريات وهي تطرق باب روحي ،فتصحبني إلى الماضي ،حيث أنا بكامل بهائي

أطوف على الأرواح العالقة في ذاكرتي ،أتفقدّ ملامحها الهادئة ثم أعود وأغلق باب الأرق مستسلما للوسن.

وأنا أرمي بثقل خطواتي كنت أحاول إخماد النّار الّتي تأجّج مشاعري نحوهما ، بالكاد أسمع تحرّكاتهما وصوتيهما وهما تقلّبان البيت باحثتين عنّي وعن حقائبي ،لا شيء ستجدانه ، وستسرع أمّي إلى غرفتي لتجد تلك الورقة الّتي كتبت على ظهرها " المحبّ الّذي ينتظر العودة إلى أحضان أحبابه لا يلتزم بالوداع " ، وستغضّ الطّرف عنها وتكتم غيظها إلا أنّها ستبكي طويلا حينما تطمئن إلينا أنّني سأعود قريبا و توصد الباب خلفها، بينما ستغرق بعدها في التّأويلات وتنزوي في غرفتها ، وستحاول دسّ رأسها في وسادتها كي تكتم أنفاسها وهي تستشعر أنّ خادمتها تلصق أذنها بالباب كي تسترق ضعفها لتنقله إلى بيوتات أخرى.

كانت الوجوه على سطح السّفينة متشابهة ، تحمل سمة الحزن نفسها والقلق ، كلّ يطرق عينيه حينما يصطدم بعينين تلمعان حزنا مثل عينيه ، كلّ الملامح على ظهر السّفينة تعكس بعضها ،لا

صوت يطرق آذان الرّكاب غير صوت الرّيح وهو ينفخ في الأشرعة ، وصخب الموج وهو يصطدم بصدر السّفينة . لأوّل مرّة أفتقد ضجيج البشر الّذي كان يعكّر صفو الهدوء حولي وأنا أرسم إحداثيات فكرة داخل كتاب ما ، لولا التّعليمات السّريعة الّتي يقدّمها الرّبان مجبرا إلى العسكر وتلك النّصائح الرّوتينية الّتي تلقى نحونا والّتي تحثّ على الاستعداد الجيّد لأيّ طارئ لانزوى كلّ واحد منّا في زاوية يلعن حظّه.

انقضى يوم كامل، أحسست خلاله أنّني بدأت مرحلة جديدة في حياتي ،لأوّل مّرة أفقد شهية المطالعة ، أشعر وكأنّ عقلي مسجون في الزّاوية الأماميّة للسّفينة ، كلّما ابتعدت مُسحت أفكار من ذهني كنت أعيش بها ، وكأنّهم بهذه الرّحلة يريدون غسل دماغي ، حتّى إذا أصبح ورقة بيضاء كتبوا عليها ما أرادوا ، لا مكان في هذه الرّقعة يستجدي التّفكر ،السّماء المقعّرة حولنا كلّ إحداثياتها متشابهة عدا تعاقب اللّيل والنّهار ،وكأنّنا سقطنا داخل بالوعة ، ونحن الآن نطوف داخلها باحثين عن ممرّ يرمي بنا خارجا.

كنت مستلقيا على فراشي أراقب السّماء عبر شقّ صغير بسقف الغرفة الّتي تجمع بعض الجند ، كانت النّجوم في السّماء من حين لآخر تعاكس عينيّ اللّتين لم يطبقهما النّوم منذ ساعات عديدة ،وكأنّها منارة تومض لي بأنّنا على قرب من اليابسة ، كنت أدقّق في تلك النّقطة الّتي جمعت شتات أفكاري ،حتّى شعرت أنّ النّعاس بدأ يستجيب لندائي المتكرّر وهو يسحبني تدريجيا إلى معقله ، ثمّ ما إن استسلمت له حتّى رمى بي دفعة واحدة إلى نقطة البداية .

كان صوت قربي هو المتسبّب في قطع الحبل الّذي كاد أن ينتشلني من بين ذراعي الأرق ، صار الصّوت يتردّد في نغمة حزينة :

ثلاث ليال كاملة لم يغمض لي فيها جفن ، متى نصل إلى هذا الجحيم ؟ شعرت وكأنّ هذا الكلام أنا من يردّده في نفسه ، رفعت رأسي وأدرته يمينا وشمالا ، وإذا بعيون الجند تعكس صورة النّجوم الّتي تملأ السّماء ، وكأنّنا بعد هذه السّاعات صُهرت أجسامنا في جسم واحد ، يفضل هذا الجسم أن يرمى سريعا إلى ذلك الجحيم

الّذي وعد به ،على أن يسير في هذا الطّريق الّذي أصبح وكأنّه يعيد نفسه ليغيظ من ينتظرون نهايته.

06

قمت من مكاني مثقلا بالأسى حيال تلك الوجوه الّتي تترصّد الأمل في كلّ نقطة تشع بالحياة ، أسندت ذراعيّ إلى حافة السّفينة ، وألقيت نظري صوب نهاية المدى أين يفرض الظّلام سيادته على ضوء نابع من السّماء ،في الدّائرة المحيطة بنا خيّل إليّ أنّ عين القمر ترقب السّاهرين وتزيّن ما حولهم ، كان نوره يظهر مفاتن الموج وهو يتمايل على بعضه ، وكأنّ تلك الموجات الصّغيرة تتغنّج للموجات الكبيرة خلفها ، وما تفتأ حتّى تصل إليها وتحضنها لتصبح جزءا منها، عندها تذكّرت إلينا ، وكيف كادت هذه السّاعات تفصل ذكراها عن قلبي .

رميت بصري نحو النّجمة الكبيرة الّتي تحاذي القمر ،لا أعلم كيف تسلّلت إلى قلبي تلك العبارة الّتي قالتها لي يوما إلينا وأنا أسألها عن التّنجيم ، سألتها إن كانت تعرف أسماء معينة للنّجوم ، لكن ردّت علي بطرافة وعفوية :أعرف نجمة واحدة فقط ، هي حبيبة القمر

الّتي لا تغادره أبدا ، حتّى حينما يصبح القمر هلالا تبقى إلى جانبه إلى أن يكتمل ويصير بدرا ، أعرفها هي فقط النّجمة الكبيرة حبيبة القمر لا غير ، أمّا النّجمات الأخريات فتتشابه عليّ ، حتّى القمر في مرحلة اكتماله وسطوعه التّام يحجب الكثير من النّجوم حوله إلاّ هي ، هذا لأنّ فضلها عليه كبير ...

آه يا إلينا ! الحبّ يحتاج إلى الهدوء والثّبات ، لو كنت ثابتا مثل القمر بالنّسبة لأعيننا الّتي تتعقب مساره لجعلت منك نجمتي الّتي لا تفارقني.

كنت أفتّش سترتي باحثا عن علبة السّجائر الأخيرة ، إذ ربتت يد على كتفي ، كانت لمسة انتشلتني من وهم أعيشه لساعات طويلة بمفردي ، استدرت فزعا وإذا بذلك الوجه الّذي تركته بالغرفة غارقا في أوهامه يقابلني : أحتاج سيجارة ، رأسي يكاد ينفجر ، قال لي هذه العبارة وسحب السّيجارة من بين أصابعي ، ثمّ مشى وعاد إليّ بوجهه بعد أن عانقت شفتاه السّيجارة ، أحتاج ولاّعة ... سحبها من يدي مجدّدا دون كلام آخر ، وسار إلى زاوية ثمّ أرخى جسده

وراح يسحب نفسا عميقا ، كانت الجمرة تأكل السّيجارة في نهم ، ظلّ للحظة يسحب الدّخان إلى عمقه وينفثه خارجا من منخاري أنفه مثل محرّك بخاري ، وكأنّ بحلقه غصّة تمنعه من التّنفس يودّ دفعها إلى الخارج بالدّخان الكثيف الّذي تشكّل داخل صدره ، كانت عضلاته ترتخي بعد أن هدّأت نشوة النّيكوتين أعصابه ، شعرت بأنّه يودّ طلب سيجارة ثانية وهو يصوّب نحوي عينيه المغتاظتين ، لكن قطعت أمله بعد أن أخرجت آخر سيجارة من العلبة ثم أملتها نحوه وتركته يتفقّد فراغها قبل أن أرمي بها خارج السّفينة ، مددت ذراعي وخطفت الولاعة من بين أصابعه ، كانت السّيجارة الأخيرة الّتي أحاول بها إحراق شيء من غيظي المترسّب داخلي .

كانت شفتاي تحتضنان طرف السّيجارة وأنفاسي تمرّ خفيفة عبرها محاولا الحفاظ عليها أكبر وقت ممكن ، وكأنّها تفرض علي مصطلح الوداع الّذي أمقته ، تتشكّل أمامي ضبابة من الدّخان ثمّ ما تلبث أن تتلاشى خيوطها في الأفق ،لأوّل مرّة أتعمّق في تلك التّفاصيل الصّغيرة الّتي كنت أترفّع عنها في الماضي القريب حين كنت أجد ما أحتاجه في كلّ زاوية من البيت ، لكن أقول بأنّني قد

وصلت إلى المعنى الّذي كنت أحفظ عباراته في ذهني للمفكر الإسباني " روبن داولير"، حين قال:" إنّ ندرة الأشياء المهمّة الّتي كانت تصنع حياتنا تجعلنا نتعمّق في شكلياّتها وتفاصيلها حتّى تصيبنا بالبلادة ، فعوضا أن نبحث عن طريق مغاير للطّريق الّذي ألفناه نحاصر عقولنا بذكرى لن تنفعنا في فتح الطّريق المسدود نحوه".

عاد ذلك الشّخص مجددا وقطع خلوتي ... عيناه اللّتان تنظران بشهوة إلى السّيجارة ، ومرفقه الحديديّ الّذي غرزه في كتفي حتّى ينبهني لوجوده ،جعلاني أفكّر في تغيير مكاني دون إظهار استيائي ، لكن أوقفني بعد خطوتين بندائه :

. متى نصل إلى ذلك الجحيم ؟

. أظنّك حضرت التّجمع الرّوتيني في الصّبيحة.

. حضرت لكنّ عقلي غائب عنّي منذ أن انطلقنا.

. كان الأجدر أن تصحبه معك ، قال الرّبان :" إن حافظ الجوّ على هدوئه سنصل بعد خمسة أيّام على أكثر تقدير...".

. خمسة أيام ! أليس هذا أمرا مرهقا لنا ، سننهار بهذه السّياسة المتبعة على سطح السّفينة ؟ كل ما يعتبر ضروريا لأي فرد منّا ،يقدّم بكمّية شحيحة تكاد لا تكفي ربع تعدادنا ، نصيب واحد من

الأكل يتقاسمه أربعة ،غرف متآكلة تملأ جوفها رائحة السّمك النّيئ ، والأهم يحرموننا من شراء السّجائر ، لا أعلم كيف ترضون بهذه الحالة.

. لست مسؤولا عن وضعك يا رجل ، ولست أهلا لرفع انشغالك إليهم ، يمكنك الحديث غدا بعد الاجتماع.

. هذه السّفينة تحمل عددا كبيرا من العساكر الّذين يحسّون حيال أنفسهم بالظّلم ، بينما يسيّرهم بضع رجال ، تخيل بضع رجال فقط يحملون عقولا مثلنا ، نحن لسنا قطيع غنم و لسنا عبيدا ، يمكننا أن نسيّر أنفسنا بمحض إرادتنا.

. وماذا بعد ؟ هل سنغرق السّفينة؟ أم سنغيّر وجهتنا ونفر بها إلى مكان آخر بعيدا عن ما أسميه بالجحيم؟ أولئك الرّجال القليلون الّذين يتحكّمون في عقولنا يدركون أنّنا سنصل وسنكون تحت رحمتهم ، كما ندرك نحن ذلك ، أظنّك تحاصر نفسك بالأوهام ، فالأرق يضخّم لك أمورا بسيطة قد تفتك بك.

. ما اسمك ؟

. توماس ... توماس جون ريش.

. أظنّني قرأت هذا الاسم على قائمة العسكر الّذين أحيلوا على المحكمة العسكريّة ،عددكم سبعة ومنحت لكم علامة أدنى من الصفر ، أليس كذلك ؟

. هل أرسلوك للتّحقيق معي؟ الأجدر بك أن تمسك لسانك وتبتعد عن مكاني، فليس لدي ما أخسره إن رميت جسدك خارج السفينة.

احنى الجندي رأسه ثمّ أداره يمينا وشمالا وهو يمزّ شفتيه ،وكأنّ به يترصد خلو المكان ليخبرني سرّا ما.

. اسمعني يا توماس ،أنا لا أحاول استفزازك كما تعتقد ، لدي من الخبرة ما يكفي لكي أبعدك عن دائرة الخطر ، يلقّبونني بالجنديّ التّعيس ، وأحيانا نيلسون الجرذ ، حينما أقف أمامهم سالما وقد قتلت الحرب جندا من فصيلتي وأصابت الكثير ، أنا من أوّل الجنود الملتحقين بمعسكرات فرنسا بإفريقيا ،أحرزت خلال هذه المدّة ثلاث نقاط ، كانت تفصلني نقطتان فقط حتّى أحرز انتصاري عليهم وأعود إلى فرنسا كبطل يحفل سجله العسكري ببطولات خارج حدود فرنسا ، كانت هذه النّقاط ستدعمني للحصول على رتبة ضابط ، لكن بعض القادة لا يتقبّلون فكرة أن يخرج جنديّ من تحت أذرعهم منتصرا ، لذلك اتّهموني زورا بالتّواطئ مع الأسرى ومساعدتهم على الفرار من سجن سيغون ، شطبوا من سجلي كلّ

النّقاط الّتي كسبتها طيلة سنوات ، وحينما قدّمت طعنا في القرار ودعمته بشهادات جند كانوا برفقتي خلال أيّام إقامتنا بمعسكر في الغابة ، فوجئت بشهادات الجنود الّتي كانت ضدّي ، أنكر الجميع وجودي معهم أو حتى معرفتهم بي ، فضاعفت المحكمة عقوبتي، ومنحوني خمس نقاط دون الصّفر ، بالإضافة إلى شطب اسمي من الإجازات لمدّة عامين ،أسبوع انقضى سريعا ، لم اتمكن فيه حتّى من استرجاع عاطفتي اتّجاه أبنائي ، ودّعتهم بالميناء كما استقبلوني قبل أيّام بنظراتهم الغريبة ، بدوت لهم شخصا دخيلا على حياتهم ،أخلد إلى نفسني فأجدني قد قدّمت الكثير للبلد بينما عاقبني أن جعلني شخصا غريبا عليه .

كنت أدقّق في ملامح هذا الشّخص الّذي صار كلامه يحفر في العازل الذي يمسك أفكاري من الانفلات ، خلدت إلى نفسي بينما تركته يتحدّث حديثا لم يتعد معناه أذني ، لطالما وظّفت القيادات العسكريّة أشخاصا يتجسّسون على الجند ،لا همّ لهم سوى أن يجسّدوا أنفسهم في الأفكار العميقة الّتي تسكن عقول الجند ، يتحدّثون بغيظ ليكسبوا ودّهم وثقتهم ،ثمّ ما إن يمسكوا بخيط فكرة تسكن في عمق أذهانهم حتّى يقلبوا الجانب الخفي من عقولهم إلى ظاهر ، ثمّ يؤلّبونهم على التّمرد والعصيان ، وما إن ينجحوا في

ذلك حتّى يعلنون للجميع أنّهم كانوا مجرّد طعم لاصطياد العقول الّتي تحمل في باطنها أفكارا عدائيّة ، نظرت صوبه وابتسمت ابتسامة من استطاع النّيل من عدوّ له .

اقترب منّي ومّد يمناه نحوي ، ثمّ شدّ على معصمي ، كانت عيناه تفحصان ابتسامتي وكأنّه قرأ ما بخلدي.

. كثيرا ما يخشى الوشاة الظّهور في الأماكن المعزولة ، كانت هناك حالات لمثل هؤلاء في أغلب الأماكن التي أمضيت فيها خدمتي العسكرية ، فالعديد منهم قضى حتفه بعد أن كُشفت نواياه أمام الجند ،لذلك اسْتبعد من ذهنك فكرة أن تجد واشيا على سطح السّفينة ، كلّ يبكي حظّه في صمت سواء الجنود الجدد أو من استنفذوا أيّام إجازتهم كمثل حالتي ، انظر إلى وضعي البائس ، لو كنت واشيا ،على الأقل كنت استفدت من مكان مريح بعيدا أن أنفاس الجند الكريهة الممزوجة برائحة السّمك ،هذه الغرف الّتي حشرونا داخلها تستغلّ من طرف القادة أيّام رصوّها ، ويؤمر الجند المعاقبون باجتياز أيّام عقوباتهم في صيد السّمك ثمّ حمله في صناديق إليها ، ليتمّ إفراغها في حاوية ونقلها سرّا عبر البواخر إلى فرنسا وبيعها ، وتترك هذه الغرف على حالها من دون أن تمتدّ يد

لتنظيفها ، فتتولّد بعض الفطريات السّامة جراء الملوحة ، لذلك لا أنصحك بالبقاء كثيرا داخلها.

. أراك مدركا لجوانب عديدة عن قادة الجيش أنت في غنى عنها.

. الحياة هناك تجعلك تدقّق في كلّ ما يحيط بك ،يحاول كلّ واحد منّا قطع رتابة العمل بالبحث في أسرار القادة وننشغل في الحديث عنها لأيّام حتّى نجد خبرا آخر أكثر أهمية . أنصت يا صديقي : لا أريد أن ألوّث أملك في العودة مجدّدا إلى فرنسا سالما و بالأفكار نفسها الّتي تحملها الآن ، لكن أؤكّد لك وأنا على يقين أنّهم وعدوك مثلما فعلوا معي ومع الكثيرين الّذين يقبعون خلف هذا البحر، وعلى وجوههم تقرأ حسرة وألما على مستقبلهم المجهول ،أنّ وعودهم مجرّد أوهام وأنّ أمَلَك لن يعمّر طويلا داخل ذهنك ، أقول لك هذا كي لا تصدُم نفسك بواقع عكس ما تخيلته ، قد تحمّل نفسك ألما أشدّ من ألم الأسرى الّذين سنصطادهم ، وأنت ترى بعينيك استحواذ قادة الجيش على الغنيمة كاملة دون توجيه شكر أو نظرة استحسان نحونا ، وسيعود الفضل بل كل الفضل لتخطيطهم الجيّد كما يزعمون ، بينما كما تجري العادة سيمنحون لنا وجبة إضافيّة جزاء حرصنا على تطبيق الأوامر ، حينها سنفكّر مثل

الأطفال الصّغار ، سنملأ بطوننا وسنسعد كثيرا ، لكن ما إن تفرغ سنلعن أنفسنا وندرك أنّنا قد خدعنا.

07

استيقظت السّيدة فيكتوريا بعد أن خطفها النّوم بغتة وهي تدير في ذهنها أفكارا ثمّ تحاول طردها بعد أن تلاحقها من جانب إلى آخر ، حملت رأسها المثقل بالصّداع ثمّ فركت عينيها محاولة إزالة أثر الغشاوة عنهما ، فاجأها ضوء النّهار المتسلل من النّافذة وهو يرسم لها حدود الأشياء من حولها ، ثبّتت نظرها نحو ساعة الحائط لثوان، وإذ بعقاربها تلسع ذهنها ليتسرّب سمّها إلى تقاسيم وجهها راسما عليه علامات الدّهشة ، قامت مسرعة بالكاد تقوى على حمل جسمها المرهق، وقد احتقن الغيظ في جوفها وهي تلوم نفسها على غفلتها.

. السّاعة تشير إلى الثّامنة و أربعين دقيقة ، حدّد موعد إقلاع السّفينة الّتي ستقلّ العساكر على السّاعة العاشرة ،وهم ملزمون

بالحضور قبل ساعتين على الموعد ، أكيد توماس يغطّ في نومه ، يا إلهي سيحاصرونه بقوانينهم مرّة أخرى ، تبّا ...

مشت السّيدة فيكتوريا مسرعة نحو غرفة توماس تحمل اسمه بين شفتيها ، ضربت الباب مرّات متتاليّة ،لا أحد يردّ ، أدارت قفل الباب ودخلت مسرعة ، فجأة علق اسمه عند طرف لسانها ، كانت الغرفة خالية من جسده وحقائبه ، اقتربت أكثر نحو سريره الّذي رتّبه هذه المرّة بعناية على غير عادته ، حصرت نظرها في ورقة وبجانبها صورته ، قرأت العبارة المكتوبة على ظهر الورقة عدّة مرات "المحبّ الّذي ينتظر العودة إلى أحضان أحبابه لا يلتزم بالوداع" ، كانت دموعها تتمدّد على الورقة بالكاد تحتضن الكلمات المرسومة عليها ، أمعنت النّظر للحظات في ملامحه على الصّورة : ذلك الشّعور الّذي يوجعني ، أن أنظر إليك بغرابة ، وكأنّك سرقت منّي شيئا ...لكن لا أعلم ما هو ، أتفقّد ملامحك بجدّية أكبر محاولة إلزامك على الاعتراف بأنّك سارق .... لكن ماذا سرقت ؟ إنّه شيء ما يشبه الرّوح الّتي تربطنا بهذا الوجود ، طرف ما

يخصني فرّ منّي إليك ، فلولا أنّ القلب هو النّبع الّذي يسقي روحي لقلت أنّك سرقت قلبي .

ردّدت هذه الكلمات بين شفتيها المرتجفتين ، ثمّ عانقت الصّورة ورمت جسدها على سريره وقد ضاق صدرها وهي تجهش بالبكاء.

استيقظت إلينا بعد أن قرع صوت بكاء السّيدة فيكتوريا أذنيها ، فركت عينيها ثمّ جلست تتأمّل الأشياء من حولها، وقد غاب عنها لوهلة أنّها في بيت السّيدة فيكتوريا ، جمعت شعرها المسدول نحو خصرها ثمّ أدارته حول يدها وثبّتته بماسك إلى أعلى رأسها ، ظلّ قلبها يضطرب داخل صدرها وهي تتبّع أثر الصّوت ، وزاد اضطرابا وهي تقف أمام غرفة توماس ، سكنت خطواتها أمام الباب بعد أن اصطدمت عيناها بجسد السّيدة فيكتوريا ملقى على السّرير ، تفقّدت باقي الغرفة ثمّ تابعت خطواتها بسكينة نحوها.
. أين توماس ؟
نظرت السّيدة فيكتوريا نحو إلينا مغتاظة وهي تطوّق طرف الورقة براحة يدها.
. انظري يا إلينا ، يبدو أنّ أفكار توماس أفرغت ذهنه من كلّ حبّ.

تأملت إلينا العبارة للحظات ، وكأنّها تحلّل كلّ كلمة فيها ،هو فقط يحاول الحفاظ على قوّة شخصيّته ، لا يريد أن ينهار أمام أيّ كان ، مثل هذه المواقف قد تزيل حجاب قوّته الّذي حافظ عليه كثيرا ، قالت هذا الكلام في سريرتها، ثمّ مدّت يدها إلى السّيدة فيكتوريا محاولة إسعافها على القيام .

. أظنّ أنّ الوقت لا يزال مبكرا على سفره ، يمكننا اللّحاق به وتوديعه عند الميناء.

. السّفينة الّتي ستقلّهم تنطلق على العاشرة ، وحدّدوا موعد حضورهم بساعتين قبل الموعد ، ونحن متأخّرون بساعة تقريبا ، يصعب علينا الوصول ومقابلته يا إلينا .

. الرّحلات عندنا غير مضبوطة ، خاصّة السّفن ، قد تتأخّر بسبب حالة البحر أو أمور تقنية.

. النّظام العسكريّ صارم مع الجميع حتّى مع الآلات ... ،لكن ومع ذلك لا أجد حلاّ آخر ، فلنحاول يا إلينا.

كان ميناء مرسيليا يعجّ بالحركة ؛ مراكز التّفتيش والطّابور الطّويل وأعين الحرس هي أكثر الأمور الّتي كانت تقلق الوافدين .

بعد حوالي ربع ساعة وصلت العربة الّتي تقلّ والدة توماس وخطيبته ،نزلتا وعيونهما تراقب الحشد المنتشر على الممرّات، والحقائب المكدّسة الّتي تتدلّى من أيديها أوراق بأسماء وأرقام ، كان كلّ المتواجدين يحملون ملامح مواطنين عاديين وأفراد عائلات ومسافرين تظهر بشرتهم على أنّهم أجانب ، نظرت السّيدة فيكتوريا صوب إلينا قائلة :

. يبدو أنّنا أخطأنا المكان ، يظهر أنّه ميناء للمدنيين وليس للعساكر.

. من المحتمل أن يكون له جناح خاصّ ، فلنستفسر عن ذلك أحسن.

. السّاعة تقترب من التّاسعة والرّبع ، الوقت يحاصرنا يا إلينا.

اتّجهت السّيدة فكتوريا نحو موظّف الاستقبال مستفسرة عن ميناء العساكر ، أشار لها إلى ممرّ قرب الشّاطئ يختصر لها المسافة بعد أن أعلمته بأنّها متأخّرة عن موعد إقلاع السّفينة العسكريّة وأن ابنها من ضمن الرّكاب ،ثمّ استوقفهما بندائه وهما يباشران الخروج من الباب الرّئيسي.

. بنسبة كبيرة لن يسمحوا لكما بالعبور ، الإجراءات هناك مختلفة.

أدارت فيكتوريا رأسها نحوه مبتسمة ثمّ استأنفت السّير.

بعد حوالي خمس دقائق كانتا قرب الجناح العسكريّ ،هدوء تامّ يبعث على الرّهبة عكس الجناح المدنيّ ، إضافة إلى البوابة العملاقة والأسلاك الشّائكة الّتي تعلو الأسوار ، ما إن اقتربتا من البوابة حتّى فاجأهما صوت كان منبعثا من أعلى برج الحراسة متبوعا بصافرة.

. هاااي.... إلى أين تذهبان؟ أظنّكما أخطأتما المكان .

. ابني ضمن المغادرين في هذه الصبيحة وأريد توديعه (ردّت السّيدة فيكتوريا وهي تتطلّع إلى مصدر الصّوت).

. انتهت الفترة المخصّصة لتوديع المسافرين قبل ساعتين تقريبا ،السّفن العسكريّة مهيّأة الآن للإبحار.

. نريد فقط رؤيته لبعض الوقت.

. يستحيل ذلك سيّدتي ، القانون لا يسمح بدخول أيّ كان دون دعوة أو انتماء إلى الفرق العسكريّة ، لذلك عليكما المغادرة.

كانت السّيدة فيكتوريا بصدد إخراج بطاقة زوجها العسكريّة حتّى لمحت الضّابط آرثر خارجا رفقة بعض الجنود من الباب الثّانوي.

اتجهت صوبه وهي تردّد اسمه ، وقف لتحيّتها ، ثمّ ما لبثت أن قصّت عليه ما بدر من ابنها صبيحة اليوم ، وأنّ عليها توديعه ، قرن الضّابط حاجبيه ثمّ حكّ أنفه بإبهامه وعاد بوجهه يتفقّد ملامح الجند من حوله، وكأنّه ينتظر إجابة منهم أو يود تلفيق كذبة تساعده في الهروب من هذا الموقف.

. السّيدة فيكتوريا ... ما كان على ابنك أن يتصرّف هكذا ، قبل ساعتين من الآن كان هذا المكان يعجّ بالعساكر المسافرين رفقة أهاليهم ، ثمّ انصرف الجميع ودخل المسافرون لاستكمال إجراءات السّفر الأخيرة ، ولا يمكننا في هذه اللّحظة العودة إلى النّقطة السّابقة.

. أظنّك تعلم حضرة الضّابط وضعي بالتّفصيل ، يمكنك مناداته إلى هنا إن كان القانون لا يسمح بدخولنا.

. كان بودّي ذلك سيّدتي ، وما كنت سأبخل على خدمتك ، كنت آخر المودّعين للجند وهأنذا أمامك الآن ، مع الأسف رُفع ممرّ العبور للسّفينة ، ورفعت الأشرعة أيضا ، يستحيل الآن أن نطلب إنزال الممرّ دون أمر فوقي ، أوصيت به خيرا كما وعدتك ، ثمّ من يدري قد يعود إليك في أقرب الآجال.

قال هذا الكلام وانصرف رفقة الجند تاركا عينيها معلّقتين نحو البوابة العملاقة.

08

انتشلني صوت الصّافرة الّذي طرق أذني من حلم اختلطت عليّ أحداثه ، كان صوتا مرعبا ارتعش له كامل بدني ، أفقت وأنا أدير حدقتَي عينَي حول فضاء الغرفة ،شعرت بجسمي ثقيلا عن الحركة ،وكأنّ روحي الّتي استلّت منه قد أنهكها تمثيل أحداث تلك الأحلام المضطربة ، روح معذّبة بين ثنايا جسد مصدوم من حوادث الحياة المفاجئة ،تتركه ملقى كخشبة وسارت إلى نسيانه ،سارت حيث زهر الحياة يفوح بكامل طيبه ،تمثّل ما شاء لها من أدوار ،ثمّ يعزّ عليها فراق تلك الأماكن المزهوّة بالرّغد ،فتبطئ عن العودة سريعا لتُزرع من جديد بين أطرافي.

أطبقت جفوني وأنا أحاول استرجاع أنفاسي ، فجأة جثم جسمي في مكانه وكأنّ كلّ طرف منه موثوق نحو الأرض ، كنت أرغب بشدّة في الصّراخ والاستنجاد بمن حولي ، شعرت أنّ صوتي مسجون عميقا في داخلي ، وما يفتأ أن يرتدّ من دون أن يتجاوز حنجرتي ، كأنّ الغرفة تسكن رأسي ولا أسكنها ، أحس بصفير الرّياح وهي تخترق سكونها وتعبث بحواف الأغطية المتدلية أسفل الأسرّة ، جسمي هو السّاكن فقط ، فكلّ ما حولي له روح تهزّ كيانه

، وكأنّ روحي أخطأت جسمي ونُفخت في هذا الهيكل الّذي فوقي ، فصرت جمادا وصار جسما.

بعد أن فشلت في الاستنجاد بمن حولي ، أسكنت ذلك الصّوت الّذي كان يصرخ داخلي، ثمّ استسلمت إلى القوّة العميقة الّتي سحبت روحي ومنعتها من النّفاذ إلى جسدي ، شعرت وكأنّني صخرة سقطت من مكان سحيق وانغرزت على الأرض، ثمّ سريعا ما منحت للأرض سلطتها عليه ،كانت دقّات قلبي أسمعها جليا وهي تُعكس في طبلتي أذنيّ ، فجأة رعدت رجلاي على وقع وخز أسفلها، ثمّ امتدّت الوخزات إلى أصابعي ، فتحت عيني وأنا أدير رأسي يمينا وشمالا وقد رنّت أذناي بطنين كنت أستشعر صداه ينبعث من زوايا الغرفة ، استندت إلى ذراعي الأيمن محاولا رفع جسدي ، إلّا أنّني شعرت بثقل ودوار يأخذ برأسي ، أدرت جسمي وأنا أضغط على حافة السّرير بكلتا كفّي إلى أن تمكّنت من الاعتدال في جلستي ، رفعت ساقي ثمّ أشبكت أصابعي حولهما ، تفقّدت الغرفة وإذا بالأشياء تنزاح عن أماكنها من حولي ، ضغطت على جفنيّ ودفنت رأسي بين ذراعي بعد أن جاشت نفسي ،كان العرق ينساب بشدّة من أعلى جبهتي وهو يشكّل خطوطا أسمع

وقعها على السّرير ، رفعت رأسي لحظتها بعد أن شعرت بجسم بارد يلامس رقبتي.

. جسدك محموم يا توماس.

رفعت رأسي ناحية الصّوت ، وبقيت للحظة أرفع جفنَي وأنزلهما محاولا دفع الغشاوة الّتي حالت بيني وبين رؤية ما يقابلني .

. يبدو أنّ دوار البحر زارك ونحن على مشارف الوصول.

كان نيلسون ، صوته الخشن الّذي صار يملأ أغلب أوقاتي على السّفينة ، حكاياته الّتي لا تنتهي إلاّ أثناء التّجمعات أو غلبة النّوم ، شعرت بإبهاميه وهما يضغطان على جبهتي ثمّ يدعكان طرفيها ، بعدها أسند مؤخرة رأسي على راحة يمناه ثمّ أخذ يفرك عينيّ بإبهام وسبابة يسراه ، أحسست بأصبعيه وهما بالكاد يفقآن بؤبؤيّ ، أمسكت معصم يده محاولا إبعاده ، لكنّه ضغط بشدّة نحو عظمة أنفي ثمّ سحب يده سريعا طالبا منّي فتح عينيّ ، رأيته قبالتي وشفتاه الكبيرتان الممتدّتان تعصران خديه ، ومن خلفه وجوه العساكر تتطلّع نحوي ، وكنت أراها لأول مرةّ منبسطة.

. لم أخبرك أنّني أحسن التّمريض أيضا.

قال لي هذا وسحبني من ذراعي ثمّ لفّه حول عنقه.

. اعتمد عليّ وتنفّس بعمق ، سأسرد لك ما قيل لنا في التّجمع الطّارئ ، أظنّه فاتك الكثير.

سرنا إلى خارج الغرفة بخطوات ثقيلة ، كان النّسيم يهبّ سمحا، كنت أشعر برطابته على جسدي المحموم ،غاب نيلسون ثمّ عاد سريعا يحمل بين يديه كرسيا خشبيّا قديما له ثلاثة أرجل، ومسند عموديه منفرجان في الأعلى تشدّهما قطعة خشبيّة مثبّتة ناحية المقعد ، أسند الكرسيّ على صارية السّفينة ثمّ طلب منّي الجلوس ، جلست بعدما رمى نيلسون جسده على الأرض وأشبك أصابعه خلف رأسه وراح يجول بناظره ناحية السّماء ، كنت أراقبه حينما سكت لوهلة وقد أخذه التأمّال بعيدا ،ابتسم للفراغ ثمّ ألقى نظره ناحيتي ،عاد وفكّ تشابك يديه ثمّ ضرب كفّيه على أرضية السفينة واعتدل في جلسته ،دسّ يده داخل سترته ثمّ أحنى رأسه وراح يفتّش عن شيء ما ، انتظرته للحظة وقد أخذني الفضول لمعرفة ما يدسّ الرّجل أسفل بطنه ، كانت ذراع يمناه ممتدّة داخل السّترة إلى الأسفل بينما يده اليسرى تمسك بشيء خارجها ، سحب يده وهو يبتسم بخبث ،كانت علبة بها بعض السّجائر وولاّعة ،

اهتز قلبي فرحا وضحكت ضحكة لم أعتدها من قبل ، ثمّ اختلجني شعور سيّء ،حينما شعرت أنّ حياة جديدة تتهيّأ لي لأسكنها ، وأنّ سلوكا مثل هذا سيزيل عنّي فطنتي وهدوئي ،ما كنت لأتخيل يوما أن روحي ستزهو هكذا لأجل سيجارة ،دفنت شعوري هذا سريعا حينما رأيته ينظر نحوي باستغراب بعدما خبّأت ضحكتي سريعا وشردت في أعماقي.

. حقّا أنت شخص غريب ،لا تدع مزاجك يغلبك يا توماس.

. كنت أخمّن في أمر سترتك ، ماذا عساها حملت غير هذا ؟

. هاهاها ... أنا لم أكذب عليك قطّ ، حقيقة لم تكن معي سجائر يوم طلبت منك سيجارة ، هذه العلبة منحها لي الضّابط قبل قليل بعدما أثمله الشّراب، أخبرته عن حالك واستفسرت عن مكان الطّبيب ، ثمّ سألني إن كنتَ تدخّن ، فأجبته بأنّك لم تدخّن منذ أيّام ، فقدّم لي العلبة مع الكرسيّ و قال لي أنّ عقلك بحاجة إلى النّيكوتين فقط .

مدّ ذراعه نحوي فسحبت من العلبة سيجارة ، رفعتها إلى شفتي المرتجفتين ، شعرت حينها بلذّة العناق نفسها الّتي تختلج نفس المشتاق حينما يضمّ إليه جسدا يحبّه .

كانت شفتاي تديران طرف السّيجارة حول حافّة لساني فصار يتلمّس منها جزءها المغمور في فمّي ، مددت عنقي نحو سيجارته وسحبت نحو سيجارتي شيئا من جمرها المتّقد ، شعرت بطنين يملأ رأسي ونشوة ساعدت في جريان الدّم في عروقي ، أكاد أسمعه وهو يغلي وينفخ حرّه نحو وجنتي ، حدّقت في عيني نيلسون السّابحتين في دخان سيجارته المتبدّد في السّماء.

. هل تعتقد أنّ هذه سجائر عادية ؟.

رفع رأسه ناحية السّماء ،ثم فتحّ فاهه كلية وانفجر ضاحكا ملء شدقيه ،كانت أسنانه الّتي انفلتت معظمها عن خطّ استوائها ،تبدو كزرب من أعمدة خشبيّة نخر الدّهر أسفلها وأحالها إلى اسوداد نافر.

. ما تقصده لن تجد رائحته هنا ، لا أحد يمكن أن يغامر بمنصبه لأجل لحظة من التّيهان ، هو فقط شعور مثل ذلك الّذي ينتابك أثناء عطشك أو جوعك ، سيستقر حالك ريثما تتشبّع رئتاك بالنّيكوتين .

كنت لا أزال أراقب عينيه وهما تتسلّقان خيط الدّخان حينما فاجأني بكلامه الغريب :

. هل أنت ليبيرالي ؟

طافت هذه العبارة في ذهني للحظات ،كنت أتذكّر خلالها بعضا ممّا مرّ علي عن حياة هذه الطّبقة ومعتقداتهم في رفض أيّ قيد على أفكارهم ، و انتبهت إلى فرضيّة جهل نيلسون بهذا التّوجه وهو يراني مقيد الفكر أمام عينيه ،أحسست لحظتها أنّ صمتي يعزّز شكوكه نحوي وأنا الّذي لم يفكّر يوما في انتمائه لأيّة طبقة ، تصنّعت ابتسامة هادئة و ألقيت ببصري حيث علُق بصره.

. قلت لك أنّ هذه السّجائر غير عادية.

كان جمر السّيجارة يأكل حواف المصفاة وهو يأخذ نفسا عميقا عبرها ، سحب الجزء المتبقي منها وألقاه خارج السّفينة وراح ينفث الدّخان في الفراغ وهو يشبك أصابعه خلف رقبته.

. احذر يا توماس ،هناك أعين لا تنام عن أفعال الجند ، كان بعض حديث الضّابط خلال الاجتماع يشير إليك ، حتّى وهو يحدّق نحوي وكأنّ به يودّ أن أنقل إليك كلامه ،تقارير الأحداث على السّفينة تكتب لحظة بلحظة ، وهم يتجنّبون عرضها هنا خوفا من الخصومات وحفاظا على رتابة مشاعر الجند الّتي قد تضطرب

لأتفه الأسباب ،ستلاحظ بعد ساعات من وصولنا اختفاء بعض الوجوه الّتي قاسمتك الفصيلة نفسها وظهور وجوه جديدة محلها ، فأرجو أن لا تكون من المستبعدين من فصائلهم الأوليّة .
. لا أفهم لم هذا السّيل من الشّكوك حولي ، أظنّك تعلم طبعي هنا وأنّني أترفّع عن الحديث إلاّ معك.
. أظنّك لم تتفقّد حقائبك منذ ساعات.
. ماذا تقصد ؟
. الكتب الّتي بحوزتك يا توماس ، صارت بين يدي الضّابط.

كان كلامه هذا كفيلا لإحداث صدمة عنيفة داخلي ، لم أفكّر لحظتها فيما سيحاك ضدّي من تهم قدر تفكيري في الكتب النّادرة الّتي أخذت منّي الوقت الكثير في إيجادها ، كانت قطعة من روحي ،أحسست بغُصّة حزن تقيّد حلقي ، وكأنّ الخيط الرّفيع الّذي كان يربطني بالحرّية التّي كانت تشغل فكري قد انقطع بعد مصادرة كتبي ، كان الكتاب الضّخم بجزأيه "الحياة الخفيّة للقدّاس" أفضل ما يعدّل مزاجي ،وكانت نيتي أن أنطلق في القراءة السادسة له حال

وصولي وصفو ذهني ،كان هذا الكتاب بمثل رئة أتنفّس من خلالها حينما تضيق بي النفس وتخنقني الأفكار المتضاربة في وجداني ،حينما كنت أمرّر نظري على أسطره ، كنت أشعر أنّ أفكاري تتمدّد حول هذا الوجود ،ثمّ كتاب "ماهية الملكية ؟" الّذي أخذ منّي الوقت الكثير في تفسير معانيه ، ومحاولة إماطة اللّثام عن البيئة الحيوانيّة الّتي تستمدّ شخوصا مرّت على تاريخ فرنسا ، في تلك اللّحظة أيقنت أنّني كنت في غفلة من أمري وقد حالت السّذاجة بيني وبين رؤية الواقع حسب الطّريق الّذي يحملنا نحو مداه المبهم ، فكيف لي أن أصحب كُتبا أصحابها فقدوا من الحياة الحريّة ، ولم يبق من ذكرهم إلا بعض الأفواه الّتي تردّد عنهم أساطير اختفائهم ،أو بعضا من نسخ كتبهم الّتي تباع وتشترى أضعافا من أثمانها وبكفالة الثّقة ،كادت نار اللّوم تأكل آخر أمل في انتشال نفسي من مخالب هذا الواقع الّذي يودّ افتراس أفكاري ، حينها مدّ نيلسون يمناه و أخذ يضرب على صدري وكأنّه يودّ استرجاع نفس الحياة إلى روحي وجبر خاطري .

. دع عنك هذا الحزن وفكّر فيما هو آتٍ يا صديقي ، أعدك أنّني سأحاول التّحرّي عن مكان الكتب حين نزولنا ، ومن يدري؟ قد يعيدونها إليك وقد استصغروا مفعولها على فكرك الّذي سيكون مشغولا بأمور أخرى.

أشرق جانب من روحي لكلام نيلسون ،ولو أنّني رأيته لحظتها مجرّد كلام فارغ قيل ليواسي نفسي في مصابها ،لكن يكفيه أنّه أمسك روحي بينما هي تتعمّق في الحسرة المهلكة ،تخيّلت كيف سيكون حالي من دونه في هذه اللّحظات ، حينما أسند رأسي على الوسادة وأمدّ يدي إلى حقيبة الكتب فأجدها فارغة ، أيّ شكّ سأوزّعه على ملامح الجنود الأبرياء ؟ وأنا مدرك أنّ نهاية كلّ مرحلة من حياة العساكر ولو كانت قصيرة ستكون مشؤومة ، وسيعلن في آخرها عن سرقة أغراض ثمينة ، لكن فيم شكي وأغلب الجند يرون في مطالعة الكتب شيئا من التّفاهة ؟

. أراك على غير الحال الّذي بدأنا منه رحلتنا يا توماس ، رقعة الحزن اتّسعت كثيرا في عينيك

. وأنت عكسي تماما يا نيلسون خفّت لعناتك وأشرق وجهك ، ثمّ ماذا تأمل من شخص يسير إلى المجهول ؟

. المرء يخشى من المجهول الّذي يسير إليه منفردا ،نحن على ضمانة الجيش الفرنسيّ فدع عنك هذا الاحباط.

. تركت أمّا وحيدة وحبيبة كانت تنتظر يوما قريبا لترتبط بي.

. وأنا تركت زوجة وأولادا جعلني الفقد أحس بغربة بينهم ، كلّنا في همّ التّجنيد سواء يا توماس.

انقطع حبل الكلام بيننا ، لوهلة أحسست أنّه ينتظر ردّا منّي ، استدار رافعا حاجبيه متأمّلا ملامح وجهي الشّاحب ، ثمّ عاد بنظره نحو الفراغ ، كان حيزّ الفضاء يضيق في عينيه وهو يرخي جفنيه مستسلما للنّوم.

عمّ السّكون أرجاء السّفينة على غير عادة الصّخب الّذي كان يحدثه الجنود ، كانت ليلة دون أصوات الشّخير المتتاليّة ، ودون أنين القلوب الّتي تغيظ لها النّفوس ، احتمال أنّها ليلة بيضاء حوت جميع الجند لتشغل تفكيرهم بالسّاعة الّتي تلي رسوّ السّفينة.

افترش الصّمت بساطه على ساحة السّفينة وامتدّ ليسكِن غبار أفكارنا الجوفاء معاقلها ،عرّجت بنظري ناحية نيلسون فوجدته قد عاد مجدّدا إلى تأمّله ،أغمضت عيني واستسلمت لحظة لجذبة الوسن ،لأقوم فزعا وأنا أحاول أن أرمي برجلي نحو الفراغ ، انزاح الكرسيّ من تحتي ، وهممت بالسّقوط على وجهي لولا الذّراع الّتي امتدّت وسحبتني من خصري ،أفقت مندهشا وأنا ألوح بعيني المتّسعتين نحو السّماء.

. هوّن عليك يا صديقي.

. آه ... عذرا نيلسون ، وكأنّه قذف بجسدي من مكان سحيق.

. أمر يحدث عند اضطراب النّوم فقط ، عد إلى فراشك وارتح إن شئت.

. لا بأس بالبقاء هنا ، لم يبق من الوقت الكثير وتمسح الشمس من حولنا غشاوة الليل.

. أسندت رأسي على الصّارية ، ورحت أتفقّد الفضاء الّذي يمتدّ بي إلى المجهول ، شعرت بوحشة تلوذ بقلبي ناحية الماضي القريب ، الأوقات الّتي كنت أقضيها جوار قلب كان يمتصّ قلقي ، ما مصير تلك الهموم الّتي ستتراكم في جوفي ؟ تلك علقة الهموم ستخنقني

يوما ، ترى ماذا ستفعل إلينا بعدي ؟ لا أظن قلبها سيميل ناحية شخص آخر ،هي أنثى سيّدة قلبها ، صعبة المراس ،لا تلتفت لأيّ إغراء ،هكذا اعتدتها مشغولة عن الجميع بأفكارها ،لا تراقب أحدا ولا تلتفت إلاّ لما تحتاجه ،لا أدري أيّ حظّ هذا الّذي جمعني بها ،وكيف تحوّلت تلك المشاحنة من أجل أفكار كاتب إلى حبّ عارم ، رغم أنّني لازلت متمسّكا برأيي اتّجاه الكاتبة سوزان ميلدارت ، وأنّ أفكارها بخصوص التّنجيم تعدّ زائفة ولا صحّة فيها ،ولا تزال هي الأخرى متمسّكة برأيها ، إلاّ أنّنا تجاوزنا الخلاف نحو حبّ صادق كاد ينتهي...

. هي المنارة يا توماس... المنارة (صاح نيلسون) .

انتشلني صوته من بين أحضان ذكرى جميلة غيّرت مجرى حياتي بعدها.

. فلنقم ونجهز الحقائب ،حتّى نكون أوّل النّازلين .

أبدى نيلسون حماسا كبيرا لحظتها ، وكأنّ به سيصل إلى مكان آخر غير الجحيم الّذي كان يخوّفني منه.

09

كانت السّماء صحوة ، و صوت الموج رخيما وهو يلطم الصّخور المنتشرة قرب الميناء ، بينما النّهار يمدّ بساطه من حولنا سريعا ، كانت أنغام الصّراصير الّتي تصدر من جوانب السّفن والصّخور تخفت رويدا رويدا ، وقد آن لسكون الليل أن يتلاشى خلف جلبة الصّافرات القادمة من السّفن ، ومن مراكز الحراسة الّتي تشهد حركة الجند وهم يتفقدون الأسلحة في استعدادهم لتداول شؤون الحراسة ، وقفت أنا ونيلسون أمام السّلّم ننتظر الإشارة من الضّابط للنّزول ، فيما كان هو واقفا قرب غرفة الجنود يتابعهم وهم يضّمون باقي أمتعتهم إلى الحقائب ، التحقوا بنا الواحد تلو الآخر إلى أن اكتمل تعدادنا ، اصطففنا على خطّ واحد بأمر من الضّابط ، وراح يمرّر سبّابته سريعا على أكتافنا ثمّ وقف عند الجنديّ الأخير قائلا :

. لقد اكتمل تعدادكم ، فليجهّز كلّ واحد منكم بطاقته وليشهرها عند كلّ مركز مراقبة.

شعرت لحظتها وكأنّني مسجون حوِّل من سجن إلى آخر ،أو كأنّني شاب مقبل على التّجنيد ، انتابني قلق من صرامة الضّابط اتّجاهنا ، عكس ما كان عليه في أوّل ليلة من إبحارنا ، استدار نيلسون ناحيتي وكأنّه قرأ ما يدور بخلدي ثمّ همس لي :

. لا تقلق من تصرّف الضّابط ، هناك أعين كثيرة تراقبنا ، ولا تنس أنّ هذه الرّحلة تضّم عددا من الجند المعاقبين .

خفضت رأسي ورحت خلف نيلسون الّذي يتْبع بدوره خطى الجندي ، مشينا بضع خطوات مبتعدين عن الميناء ، أبصرت ناحية الشّمال حيث يقف بعض الجنود وأياديهم مزوّدة ببنادق ، كانت أعينهم تحاصرنا وتتتبّع خطواتنا ، لازلت أتذكّر تلك الابتسامة الماكرة نحوي من جنديّ نحيل فاره الطّول ، كان يرفع عينيه ويخفضهما ويهزّ بندقيته كلّما مرّ عليه جنديّ من الصّف ، سرنا خطوات ثمّ التفتّ نحوه ، كانت عيناه لا تزالان ترمقان الصّف ، انتبه إليّ

وجعل يعضّ شفته ويشمخ بأنفه ، وكأنّه كان ينتظر ردّا من أحدنا ليُتمّ استفزازه ، ثمّ رفع بندقيته نحو رقبته وضربها على صدره مبتسما بمكر ، شعرت أنّ نَفَسي يضيق كلّما امتدّت خطواتي على هذه الأرض ، استدرنا في منعرج حيث تنتشر بعض الخيم وبيوت ذات أسقف حديديّة مثلثّة تعلو أغلبها صلبان ، استدار الجنديّ الّذي يتقدّمنا نحونا ثمّ أشار إلى مبنى مقابل.

. اصطفوا قرب ذلك الباب أين يقف الجنديّ ، وليشهر كلّ واحد منكم بطاقته وينتظر دوره للدّخول.

قال هذا الكلام وانصرف سريعا وكأنّ به يودّ التّخلّص منّا.

كان وجه الجنديّ الواقف أمام الباب شاحبا وعيناه ذابلتان ، يفرك عينيه أحيانا ويضغط جفنيه أحيانا أخرى ، حينما اقتربنا رفع رأسه ناحيتنا فاغر الفم ، ثمّ أوقفنا مشيرا براحة يده ، التفت صوب الغرفة أين ينبعث ضوء خافت وهزّ رأسه ، استدار نيلسون ناحيتي وهمس قائلا :

ـ مستاؤون من وصولنا في هذا الوقت ، انظر إلى جسم هذا الجندي الذّابل ، وكأنّ بهم اقتلعوه من الفراش وأحضروه مرغما إلى هنا.. ، في الغالب هناك ضابط وجنديّ داخل الغرفة ، لا تأخذك استفزازاتهم نحو المزايدة في الكلام .

قال هذا بينما الجنديّ يضرب حافة الباب مبديا امتعاضه من التفاتة نيلسون نحوي ، أدار وجهه عنّا وصار ينفث ويتمتم بكلام هسيس غير مفهوم ، ثمّ استطرد قائلا ونظره ثابت في الفراغ :

ـ أشهر بطاقتك واستعد للدّخول ، الكلّ يشهر بطاقته ، أظنّكم جنود مدرّبون ،لا داعي إلى تكرار الكلام نفسه مع كلّ فرد منكم.

التقطت أذني صوتا خافتا لأحد الجنود من الخلف قائلا:

ـ وما دخل التّدريب في إشهار البطاقة أيّها العابس.

رمى الجنديّ ناظره نحونا متفحّصا وجه كلّ واحد منّا ،ثمّ أدار وجهه عنّا وهو يتمتم بكلام لم يصلني معناه ، ثمّ عاد وأشار إلى نيلسون الّذي كان يقف عند حافة الباب برأسه أن يدخل ، دخل

نيلسون ثمّ خرج سريعا ، أدار رأسه نحوي مصطنعا ابتسامة غامضة ،كانت عيناي تتبّعان خطوه بينما الجنديّ يلوح نحوي بعصبية ،أشهرت بطاقتي وعيناي معلّقتان نحو نيلسون الّذي ابتعد منفردا من غير أن يسأل الجنديّ عن الوجهة القادمة ،أو حتّى أنّه لم يقف منتظرا خروجي ،كان بالغرفة مكتب خشبيّ سيقانه الأربعة مبتورة إلى نصفها ،بدا المكتب أقرب بكثير إلى الأرض ، حتّى وأنا أقابل الضّابط الّذي يجلس قبالتي ،كأنّ لا شيء بيننا غير رأس شعلة شمعة ضخمة تأكل فتيلها وتفترش شمعها الّذي صار متكأً لها على المكتب ،الغرفة تبدو فارغة وضيّقة كما بدا لي من خلال الرّقعة المضاءة حولي ،فانوس منطفئ على حوافه تربة مترسّبة معلّق على الجدار المقابل ، يتوسّط خريطة صمّاء لفرنسا ،وخريطة للجزائر حدّد على بعض المناطق فيها دوائر تتّسع وتضيق من رقعة إلى أخرى ،قرأت مفتاحها من خلال الخريطة المعلّقة بمكتب الحراسة بالثّكنة المركزيّة بفرنسا ،نسبة الخطر تحدّد باتّساع الدّائرة ،شعرت ببرودة تلامس أطرافي ، وكأنّه جوّ كنائسيّ مهيب أجلس

فيه على كرسيّ الاعتراف ،كما جلست السّيدة لينا من قبل أمام الكاهن شاول ،لا فرق بيننا كلانا سار إلى العذاب ،غير أنّها تكلّمت بنية التّوبة عن الخطيئة ،وأنا أحمل خطيئتي معي ،لا مجال للتّوبة ،وإنّما سأوقع على آخر ورقة تحدّد عذابي في هذه اللحظة.

. ما اسمك ؟

. كما هو محدد أمامك على البطاقة حضرة الضّابط : توماس جون ريش.

. حسب اللاّئحة الاسميّة الّتي رافقتكم ،أنت من الجند المعاقبين.

. لا أعلم سبب سؤالك حضرة الضّابط ،وأنت تحوز كافة المعلومات المتعلّقة بالجند .

نظر الضّابط ناحيتي ثمّ ابتسم بازدراء وكأنّه استهان كلامي ،عاد وخفض عينيه وهو يهزّ رأسه، ثمّ جذب ناحية صدره دفترا وأخذ يورّقه ،علّق نظره على جدول لثوانٍ ،ثمّ عادت ابتسامته

المستخفّة لتضغط وجنتيه من جديد لكن بحدّة أكبر، حدّق نحوي للحظة ، ثمّ حمل ريشة وأخذ يدوّن على بطاقتي.

. ستحمل رقما تسلسليا جديدا ،تذكّره جيّدا "ب42" ..."ب42" ، حينها ستعلم سبب سؤالي الّذي أزعجك ،وستتعلّم كيف تكون لبقا مع من هم أعلى رتبة منك.

كنت سأردّ على كلامه وأسأله عن قصده من حرف الباء ،هل يقصد السّجين ؟أم الجنديّ؟ ذلك أن كلا الكلمتين تبدءان بحرف الباء – باللّغة الفرنسية – لكنّه قام بعدما وضع البطاقة بيدي طالبا منّي الخروج والانتظار في الخارج .

وقفت خارجا وأمامي حقيبتاي منتظرا اكتمال تعداد الجند ،غاص ذهني في تأويلات الأحداث التي صارت تتعاقب عليّ سيعا ،ترى أين سار نيلسون دون أن ينتظرنا ؟... ولم تلك الابتسامة الباردة نحوي ؟... وأين سنسير نحن بعد هذا ؟...

كنت سأسال الجنديّ عن مكان نيلسون غير أنّني انتبهت سريعا ولجمت لساني ،لا يجوز السّؤال عن الأشخاص في حياة التّجنيد ،

وإلاّ صرت دبقا لأوصاف ستجلب لي السّوء والمعرّة، "ابحث عن نفسك فقط" ، هكذا اعتقدت إجابة الجنديّ كغيره من العساكر المتعطّشين للمسؤوليّة .

10

. أين نيلسون ؟...

رحت أسأل نفسي وسط الجنود الّذين أميّز ملامحهم فقط دون أسمائهم ، بعد خروج آخر الجند من المكتب ، نظر الجنديّ صوبنا ثمّ أمرنا أن نصطفّ ، كانت المرّة الأولى الّتي يقابلنا فيها بوجهه متحدّثا من غير أن يلقي الكلام في الفراغ أو يشير برأسه أو يديه ، دخل المكتب وعاد بورقة تظهر عليها لائحة اسميّة ، مرّر نظره صوبنا ثمّ أومض سريعا بالورقة وعاد بنظره نحونا قائلا :

. اكتمل تعداد الجند ، وبذلك انتهت مهامي معكم ، أربعة عشر جنديّا ، كلّ حسب فرقته الّتي تناولها من الضّابط ، بالنّسبة للجنود السّبعة الجدد ، ستمرّ الفرق تباعا على الميناء خلال ساعات وكلّ مجبر على الالتحاق بفرقته ،أمّا البقية العائدون من الإجازة وعددهم سبعة أيضا ، فأنتم ملزمون بالالتحاق بفرقكم عبر الدّوريات الّتي ستمرّ هذا الصّباح من هنا كما جرت العادة. هل من استفسار ؟.

صار كلّ يحدّق في وجه الآخر ، وكأنّ كلّ واحد منّا بداخله سؤال يكتمه ، رأيت دهشتي في وجوه الجنود من حولي ، وكأنّ السّؤال نفسه يتردّد في خلد كلّ واحد منّا ، كنّا خمسة عشر جنديّا في السّفينة ... أين نيلسون ؟ ، هكذا قرأت دهشتهم لكن لا أحد يملك الشّجاعة زيادة عنّي ، انفرجت شفتا الجنديّ وهو يبتسم مستخفّا بدهشتنا المعلّقة على وجوهنا، اقترب منّا خطوتين ثمّ أردف قائلا:

. يكبر الجنديّ حينما يعرف قدر نفسه . أوقات طيبّة ...

جلس كلّ واحد منّا يترقّب قدوم فرقته ، بينما سار الجنود القادمون من الإجازة الواحد تلو الآخر ، بقينا نحن السّبعة صامتين إلى غاية أن انبلج الصّبح وفتّحت عيوننا أكثر على المكان بعد أن أشرقت الأرض من حولنا ، كان الميناء أشبه بثكنة عسكريّة ، الهدوء الحذر نفسه ، والنّظرة المريبة نفسها الّتي تحسّك بغربة المكان ، والهواء الرّطب يبعث على الرّهبة ، وكأنّ للمكان أعينا خفية ترصد كلّ من تخطو قدماه داخله ، تسير فتشعر بتلك الرّجفة

الّتي تعتريك فجأة حينما ينبّهك حدسك بوجود أعين تتجسّس على خلوتك .

في النّظام العسكريّ ستتولّد لديك حاسّة سادسة وهي الانتباه ، لابدّ ألّا تشعر بالأمان أبدا ولو كنت خارج المؤسّسات العسكريّة ، ما دامت نفسك تعيش في ذلك الفضاء الّذي لا تتآلف فيه السّكينة وتصطدم فيه حريتك بجداره الثّخين كلّما أرادت التّحليق برأي انفرادي . أفكارك لابد أن تتدفّق مع تيار ينبع من فكر يسكن أعلى القمّة ، لابد إذن ألّا تمشي عكس هذا التّيار الجارف ، وإلا كنت كحصى صغيرة عالقة بممرّ شلال يتدفّق من مكان سحيق..

– بقينا نحن الوحيدين العالقين هنا .أتضوّر جوعا ، ألا تملك شيئا يسكت صفير بطني؟

لم أنتبه لما حولي وأنا غارق في تأمّلاتي ، صوته الهادئ الحزين أنار في داخلي جانبا أظلم منذ أيّام ، استدرت نحوه فقابل دهشتي بابتسامة عريضة ثمّ أردف قائلا :

. يبدو أنّنا سنكون في فرقة واحدة.

نعم تذكّرت ملامحه ، كان هو... ذلك الجنديّ الّذي يأنس لوحدته ،لا يتأثر ولا يزعجه العتاب الّذي يتلقاه من الضّابط أثناء التّجمعات حينما يبطئ السّير ، تلك الابتسامة الّتي تعبث بمشاعر الضّابط وهو يأمره بالإسراع ، ذلك المستهتر من كلّ أمر جديّ ، ولا يعكّر مزاجه قول ولا فعل ، ملامحه الخجولة الّتي تزيّن وجنتيه باللّون الورديّ على الدّوام ، وشعره الأجعد الّذي من فرط التوائه على بعضه يظهر ثابت النّمو ، كان يأخذه بين أصابعه عند أحد ناظريه وهو يلهو به متظاهرا بعدم الاكتراث بكلام يلومه ، عيناه السّوداوتان الكبيرتان ما تفتآن في السّباحة نحو الفراغ وكأنّ شيئا ما يشدّهما ، بينما أعين الجند مركزة في وجه الضّابط وهو يتكلم .

عكست ناظريّ عنه وأدخلت يديّ في الجيب الخارجي للحقيبة وأخرجت علبة بسكويت كانت قد وضعتها إلينا ساعات قبل مغادرتي ، يومها أصرت عليّ بأخذها حتىّ أحتاط من الجوع أثناء السّفر ، فتحت العلبة وقرّبتها منه حتّى يتناول قطعا منها ، لكن فاجأني أن سحب كلّ العلبة شاكرا مبتسما ببلاهة ، تسارعت

الأحداث من حولي ، وأصبحت الحياة في عيني تضيق وتضيق حتّى تجسّدت في ملامح هذا الشّخص بكامل معانيها ، كلّ من وثقت فيهم وملؤوا قلبي أنسا أبعدتهم الأقدار عنّي ، أمّي وإلينا ونيلسون ... نيلسون آه لتلك الخيبة ، خطر على بالي لحظتها أن أسال هذا الشّخص القابع بجانبي عن نيلسون . لبثت لحظات متردّدا بينما هو منشغل بتناول قطع البسكويت ، وحينما فرغ التفتّ إليه قائلا :

– هل تعرف أين ذهب نيلسون ؟

– من نيلسون ؟

– يقال له نيلسون الجرذ ، كان معنا أثناء الرّحلة ، وكان الأوّل بالصّف منذ... (قاطعني قائلا)

– لا داعي للشّرح ، لم تلقف أذناي مثل هذا الاسم من قبل ، ولم أنتبه لأيّ شخص متواجد بالصّف ما عداي أنا.

– تبّا .

– ماذا قلت؟

. لا شيء... ما اسمك ؟

– ها...ها...ها... لا أدري ، فكلّما مكثت بفرقة إلاّ وأطلقوا عليّ اسما جديدا ، التّعيس ،الأبله ، المجنون و....و...و ، يمكنك أن تقترح اسما تراه مناسبا لي.

التفتّ عنه ولم أردّ على كلامه ، وحينما شعر بانزعاجي قام وربت على كتفي قائلا :

. اسمي بيل ... بيل نتانغ.

. نتانغ؟

. نعم يظهر أنّه اسم مزعج للجميع ، لكن هو أوّل لقب عسكريّ لقّبت به ، كان أيّام التّدريب ، بعد أشهر ظلّ فيها يلاحقني ضابط سخيف باستهزائه ، وفي يوم حارّ وقد بقي يومان على موعد التّخرج ، طلب منّي الجري لمدّة ساعة حافي القدمين وعلى ظهري كيس من الرّمل ، لكنّني رفضت وجلست أرضا ، فأشار نحوي بسبّابته

مقهقها وساخرا :هذا نتانغ ،لا أظنّ أحدا فهم معناه، لكنّ الكلّ بادله السّخريّة نفسها والقهقهة ، و بذلك شاع هذا اللّقب بدل اسمي.

. ماذا يقصد بهذه الكلمة؟

. لم أبحث يومها في الأمر ، إلى غاية أن أخبرني ضابط أثناء تواجدي بثكنة بمرسيليا ، قال أنّها تعني بلغة رومانيّة قديمة "ساذج" ، لحظتها ضحكت على معناها لدقائق ، فاستغرب الضّابط ضحكي ثمّ قام منزعجا وأردف قائلا :

. فعلا أنت ساذج .

. وماذا عن توجيه الضّابط لك صباحا؟

. دخلت ، ثمّ أشار لي برأسه أن أجلس ، بقي للحظة صامتا ، ثمّ تشكّلت على ملامحه ابتسامة ساخرة ، فاغتظت وبادلته الابتسامة نفسها ، بعدها سألني من أين جئت ؟ ، بقيت صامتا كأنّي لم أسمعه ، ثمّ أعاد سؤاله ، فأجبت :

. من حيث أتى الجنديّ الّذي سبقني ، فعلّق بصره ببصري للحظات ، وكأنّه يريد أن يظهر سلطته عليّ ، ثمّ ترنّح في مكانه وخفض بصره قائلا : ستذهب إلى الجحيم ، فأجبته : الجحيم أرحم من ملامحك الغليظّة.

لحظتها أخذ زفيرا كزفير القدر الّتي تغلي ماء...

. وأين برأيك يقع هذا الجحيم ؟

. الجحيم يا صديقي بدأ منذ ألقيت على ظهري تلك البذلة العسكريّة.

شعرت بكلامه هذا يضمّ خاطري بدفء ، صمتّ لبعض الوقت إلى أن شعرت أنّه تحسّس من صمتي ، التفت نحوي وأخذ يحدّق في الحقيبة المحصورة بين ركبتي ثمّ تابع قائلا :

. ما اسمك؟

. توماس جون ريش.

. ألا ترى يا توماس أنّهم تركونا هنا عمدا ؟

. ولمِ يتعمّدون ذلك ؟

. كم رقمك الجديد؟

. "ب42".

. وأنا "ب43".

11

كان ظلاّنا يتقلّصان نحونا ، بينما كنّا نخوض في الحديث تارة ونركن إلى الصّمت تارة أخرى ، انتابني قلق كوني لم أستطع الوقوف على فكرة واحدة تحدّد شخصيّة هذا الرّجل ، فملامحه السّاذجة لا تعكس أبدا ما يحمل في خلده ، يتحدّث بمكر ، ينصت إليّ بسخافة ، وينظر ناحيتي بسذاجة ، وفي كلّ حالة هو يعي ما يفعل ، ويدرك كيف يسرق حاجته من محدّثه ، أتراه سيختفي كما اختفى فجأة نيلسون؟ التفتّ جانبا ثمّ عدت إليه بوجهي بعد أن طرق ذهني سؤال عن سبب تأخّره الدّائم عند كلّ اجتماع بالسّفينة. لكن باغتتنا صوت جندي من خلفنا :

– احملا حقائبكما واتبعاني .

سرنا على مقربة منه ، عكس العسكر الّذين قابلناهم منذ أن وطِئت أقدامنا هذا المكان ، كان هذا الجنديّ أكثر تجاوبا معنا وأكثر لباقة منهم ، لكن ليته لم يكن كذلك ، ففي البداية بادر

بالسّؤال عن اسمينا ، ثمّ عن الأمكنة الّتي تجنّدنا بها منذ تخرّجنا وعن سبب إرسالنا إلى هنا.

ثمّ سألنا إن كنّا على معرفة بوجهتنا المقبلة ، وحين أنكرنا ذلك ، ابتسم قائلا :هناك تموت القلوب ... مكان لابدّ أن تكون فيه وحشا وأن ترفس ضميرك تحت قدميك... الكثير من الجند أقيلوا بسبب جنونهم ، ومنهم من أسر ومنهم من تمّت تصفيته . هم أولئك الرّجال الّذين يحكمون باسم الصّليب ، فكلّما دخلوا مؤسّسة عسكريّة إلاّ وأفسدوها . حينها ردّ بيل قائلا :

– وما اسم هذا المكان ؟

– سجن "سيغون" ، وما يشاع عليه أيضا أنّه من يدخله من الأسرى فهو إمّا هالك أو سجين متنصّر ، وهذا كلّه حقيقيّ على أفواه الجند الّذين قضوا فترة هناك.

بعد أن ختم الجنديّ كلامه استدركت اسم المكان الّذي نطق به ، نعم ... إنّه المكان نفسه الّذي حدّثني عنه نيلسون ونحن على السّفينة ، لكن لماذا نحن الاثنين فقط دون البقية المعاقبين وجّهنا

إلى هذا المكان ؟ وكيف خمّن نيلسون بإمكانية توجيهي نحوه؟ هل تكون مجرّد مصادفة؟.

ربت على كتفه ثمّ قرّبت رأسي نحو أذنه هامسا :

- هل تعرف نيلسون؟

- من نيلسون ؟

- جنديّ سابق نزل رفقتنا ، ولكنّه اختفى بعد أن دخل مكتب الضّابط هذا الصباح ، كنت أحمل كتبا معي ولكن أخذت من حقيبتي في غفلة منّي ، وكان قد وعدني بمحاولة استرجاعها بعد وصولنا.

- لا ...لا أعرف شخصا يحمل هذا الاسم .

- قد يعرف باسم نيلسون الجرذ .

حينها تغيّرت ملامح الجنديّ وأدار وجهه عنّي متجاهلا سؤالي وهو يشير إلى مكان تركن إليه عربات عسكريّة وأحصنة وبعض الجنود ، ثمّ تابع قائلا :

. تلك هي الفرق المتّجهة إلى " سيغون" ، حسب عددهم الكبير ، . أظنّ أنّه سيقام تجمع هناك ، أو زيارة لمسؤول عسكريّ ... رافقتكما السّلامة.

ختم كلامه مسرعا ورجع من حيث اصطحبنا .

كان الجند مجتمعين ، وما إن لمحنا أحدهم حتّى أخذ يشير ناحيتنا ، عرفت فيما بعد أنّهم كانوا بانتظارنا ، تأهّب الجميع للصّعود ، بينما وقف أحد الضّباط متأبّطا ملفّا رماديّا . وصلنا ، وجّهنا له التّحية ، ثمّ أخذ بطاقتينا وراح يتفحصهما بعدما فتح الملف أمامه على لائحة اسميّة ، سلّم لنا قلما وطلب منّا التّوقيع أمام اسمينا ، وحينما فرغنا أمرنا بالصّعود إلى العربة الثّالثة في التّرتيب ، كانت أجساد الجند متراصّة داخل العربة والبعض منهم يقف في وسطها ، وبينما نحن نتجهّز للصّعود اقترب منّا أحد الجند وفي يده كيس أسود كبير ، أخرج كيسين وقدّمهما لنا قائلا:

. هذه وجبتكما خلال الرّحلة ، ستكون طويلة نوعا ما ، لذلك حافظا عليها قدر المستطاع.

نظر بيل ناحيتي مبتسما بسخريّة ، صعدنا و ألقينا التّحية على الرّؤوس المتحلّقة نحونا ، ثمّ أخذنا مكاننا في العربة ، حينها أقفل الجنديّ الّذي صرفناه خلفنا البوابة الخلفيّة ذات المصراعين ، ثمّ وقف غير بعيد ملوّحا بيده مبديا اكتمال الجمع . انطلق صوت صافرة من البرج معلنا انطلاق الرّحلة ، ساد الصّمت بين الجند للحظات ، ثمّ سمعت همس أحدهم لجنديّ بجانبه.

. هل حقيقة أنّ الجنرال دو برومون سيلقي خطابا هذا المساء ؟

فردّ عليه بحماسة :

. هل لك معلومات تؤكد هذا؟

. هذا ما سمعته على لسان الضّابط.

. أمر محفّز أن نسمع جنرالا يستقبل الجنود.

. هو يصنع الثّقة في أنفسنا ، ليت كلّ الضّباط والجنرالات يتّبعون طريقته ، نحتاج شحنا أكبر لأذهاننا بأفكار دو برومون ، حتّى

أولئك المتوحّشون أصبحوا يتكاثرون فيما بينهم في جحور تحت الأرض ، ثمّ ما يلبثون أن يهاجموا من يسعون إلى تمدينهم.

ثمّ تابع بصوت وهو يصرخ ويتصفّح وجوه الجنود:

. تلك الحيوانات لا تروّض ، يجب أن نقضي عليها ، ولا يجب على حكومتنا أن تستعطفهم.

لحظتها تعالت أصوات بعض الجنود قائلة :

. الموت لهم ولتحيا فرنسا بفكرها شامخة .

ثمّ انضمّت أصوات أخرى لهم وارتفعت الجلبة من حولنا ، قرّب لحظتها بيل رأسه إلى أذني هامسا :

. لا تكترث يا صديقي ، فعقولهم مخدّرة ، ولا ريب أنّهم كانوا مثلنا يوما قبل أن يُغسل دماغ كلّ واحد منهم ، ولا شكّ أنّنا سنصبح يوما مثلهم ، نهتف للوحشيّة في حين أنّ الحقيقة مختلفة تماما ، فلنهتف معهم قبل أن تنقلب الأعين نحونا . لحظتها رفع بيل يده إلى الأعلى هاتفا.

. الموت لأولئك الجرذان ، ولتحيا فرنسا..

وكزني بيل بذراعه منبّها لي أن أهتف معه ، وحين أبطأت ، همس مجدّدا في أذني:

. يجب أن تكون ماكرا لتكسب ودّ الجميع ، يجب أن نعيش بسكينة إلى لحظة ما يا توماس.

. لأوّل مرة أحسست فيها أنّني مجبر على خداع نفسي ، وأنّ أصيح فوق قناعتي ، رفعت وضممت صوتي إلى الهتاف من حولي ، لدقائق تلونت الوجوه مِن حولي بالحماس ، ثمّ بدأت الجلبة تنخفض روّيدا ، حينها صاح الجنديّ الّذي أذعن للهتاف أوّل الأمر فوق صوت الهتاف المتعّب قائلا :

. المجد لكم أيّها الأبطال ، اليوم أو غدا هذه الأرض لنا ولأجيال فرنسا.

مرّت قشعريرة خفيفة على صدري وأنا أسمع هذا الصّوت الرّاعد ، وكأنّه ينطق عن حقّ ، صوت يحمل نبرة إغواء للجند ، وكأنّهم أتوا

فاتحين بلادا سلبت منهم لا غازين بلادا ليست لهم ، صمتَ قليلا ثمّ أردف قائلا :

. فلترتاحوا أيّها الجمع الطّيب ، أنتم في حفظ المسيح ما دمتم على رأي واحد ، المسيح يبشّر أتباعه دائما بالفلاح إن هم صبروا على مكر العدوّ ، ارتاحوا وتناولوا ما يذهب عنكم غلبة الجوع والعطش ، ولا تسرفوا في ذلك ، وأنتم الأنقياء.

عمّ الهدوء داخل العربة ، وعمد كلّ جندي إلى كيس بجواره يخرج منه طعامه ، مشيت نحو زاوية في آخر العربة وأسندت ظهري عليها وهممت بفتح كيس الطّعام ، تبعني بيل ثمّ ألصق كتفه بكتفي قائلا:

. لو أقول لك أمرا ، هل تراك تصدّقني ؟

أشرت إليه برأسي أن يتكلم ، فوجّه بصره نحو الجنديّ الّذي هتف أوّلا قائلا :

. حاول أن توجّه بصرك خفية نحو ذلك الجنديّ ، انظر ناحية مرفق يده ، أين يحاول أن يخفي شيئا ما ، يظهر أحيانا جزء منه ، تابع ملاحظتك وتكتشف أنّه وشم للصّليب ، وتعلم أنّ الوشم ممنوع على الجند ، و ذلك يعني أنّ هذا الشّخص المندسّ بيننا ليس جنديا ، وإنّما هو مبشر زرع بيننا ليقتفي أفكار كلّ واحد منّا ، وحتّى ينشر الحماس الصّلبيّ بيننا.

ذهلت لكلام بيل وتابعت ملاحظتي بين فينة وأخرى لحركات هذا الشّخص ، عندها تأكّدت من كلام بيل ، استدرت بجسدي كلّه نحوه ، ورفعت يدي ضاغطا كتفه قائلا :

. ما أخبثك يا نتانغ !.

كانت ثقتي تزداد أكثر في بيل كلّما راقبت عينيه المتّقدتين ،هو لا يثق في أحد ، بينما يمتصّ ثقة الآخرين بملامحه السّاذجة ، لا أحد كان يدرك أنّ هذا الشّخص خطر على فرنسا من أولئك الّذين ينعتونهم بالوحوش.

جلست رفقته نتناول وجبتنا ، بينما رأسه الضّخمة لا تهدأ عن الالتفات ومراقبة ما حوله ، مضى من الوقت على تقديري أربع ساعات ، توقفنا فيهما مرّتين بأماكن بطحاء مرتفعة تفترشها الحصى ، وكان في كلّ مرّة ننزل بها يؤمر بعض من الجند بحراسة المكان وتوجيه بنادقهم نحو الأسفل وهم منبطحون ، بينما يذهب الآخرون إلى قضاء حاجاتهم أو الدّخول في تجمّعات ، فيما العربات العسكريّة مركونة وسط المكان .

كنت أنا وبيل في الاستراحة الثّانية نجول من تجمّع إلى آخر ، بعدما أسندت إلينا في الاستراحة الأولى حراسة المكان رفقة بعض من الجند ، خلال اللّحظات من استراحتنا غلب الصّمت على بيل وكأنّما يودّ التّأكد من شيء حولنا ، كنت فقط أتّبع خطواته في صمت ، بعد أن أعلن ضابط يقف قبالة العربات نهاية الاستراحة ، انسحبنا من بين مجموعة من الجند ، انزوى بيل ناحية العربة بينما الحرس يزحفون إلى الخلف منسحبين من أماكن الحراسة ، تبعته وهو يمشي الهوينا مديرا رأسه ناحيتي مبتسما بخبث.

. هم وضعوا خطّة ونحن الجند المساكين نتبعها ببلاهة ، انظر ناحية الأشخاص الأربعة المتجمعين ، أولئك كلّهم مبشِّرون ، وسيصعد كلّ واحد منهم بعربة ليكملوا مهامهم التّبشيريّة.

. وكيف لهم أن يوقعوا الجند في خديعتهم بهذه السّهولة؟.

. هم يعدّون لغسل عقول الجند ، وأنت كنت كذلك ستقع في الخدعة نفسها لولا أنّني نبّهتك ، هؤلاء أغلبهم جند يقصدون هذا المكان لأوّل مرّة ، والسّلطة الفرنسيّة تدرك أنّ الوحشيّة هي الحلّ الوحيد للاستلاء على أملاك الشّعوب ، ولا أسهل عليها من ملء عقول الجند بالحماسة للدّين ثمّ تتبعه مباشرة بالحماس الوطنيّ ، لحظتها ستنتج آلات بشريّة تتحّكم فيها كيفما تريد ، لذلك كن بعيدا وكن قريبا.

. كيف ذلك ؟

. ستفهم لاحقا ، هي الإشارة الثّانية ، فلنصعد العربة .

12

صعدنا العربة ، وبعد دقائق من الانطلاق بادر شخص بالحديث ، توجّهت الأعين ناحيته ، وكأنّ الجميع كان ينتظر أن يوقد شخص ما حماسهم ، لاحظني بيل أتصفّح وجوه الجند ثمّ أعود بنظري ناحيته فهمس في أذني قائلا :

. لا تتعب نفسك يا صديقي ، ذلك الشّخص ترك مكانه لآخر حتّى يكمل المهمّة دون أن يشكّك أحد في أمره ، ترقّب فقط ما سيقوله هذا الشّخص الّذي عوّض مكانه.

أخذ صوت المتحدّث يرتفع شيئا فشيئا بينما أعين الجند تتّسع في حماس وأعناقهم تشرئبّ ناحيته ، أمسك بيل معصمي وسحبني أين تحلّق الجند حوله.

. المسيح شعاع الأمل للحياة ، وفرنسا المتمدّنة تحمل رسائلها الصّادقة لهذه الحياة ، ولا يجب أن تتوسّع وحشية البشر وإلاّ امتدّت

أذرعها نحو فرنسا . نحن جند وأتباع للمسيح وأبناء فرنسا المتمدّنة لن نضيّع رسائل النّور الّتي نحملها في قلوبنا ، ولن تضيع حضارة فرنسا ، أرواحنا فداء لهذه القداسة.

حينها صاح الجميع بحماسة ، وكان بيل من بينهم فتبعته وصحت رفقتهم ، كان هذا الشّخص يتفقّد ملامحنا الواحد تلو الآخر وكأنّه يودّ معرفة نسبة تأثّر كلّ واحد منّا بخطابه ، علت الأيادي وارتفع مجددا صوت الحماس حتّى بحّت الحناجر ، حينها ابتسم المبشّر ابتسامة الرّضا وعيناه تتّقدان مكرا ، فكّرت كيف كنت سأنخدع بهذا الكلام كما قال بيل ، وأنا الّذي لم أقتنع يوما بأفكار هذه الدّيانات ولا بخدعة التّحضر الّتي تصوغها الحكومات لشعوبها عن طريق استعبادهم . مدّ المبشّر كفّه ناحية الجند وبدأ في خفضه ببطء ملوّحا ، هدأت الجلبة ، ثمّ ضمّ كفيه شاكرا.

. نعم جند المسيح ، أنتم فخر لفرنسا.

لحظتها مدّ بيل عنقه ناحيتي قائلا:

. سمة التّبشير ظاهرة عليه ، انظر كيف يقدّم خلال حديثه ذكر المسيح عن فرنسا ، ما يريده هو مخاطبة عاطفة الجند ليرمي بهم إلى حضن الفكر الّذي تبنّته السّلطة لكسبها رهان هذه الأرض ، وهي تدفع أرواح هؤلاء الجند لتحصل على مبتغاها.

كان المبشّر ينظر ناحيتنا قبل أن يتوقف بيل عن الحديث ، نظر ناحيته مبتسما كما عهد ذلك، الابتسامة الّتي تبعد عنه مصائب أفكاره ولسانه ، بادله المبشّر الابتسامة ، ثمّ مرّر عينيه ناحية الجند وأردف قائلا:

. لم يبق الكثير على وصولنا ، يمكنكم الجلوس وتناول طعامكم.

انصرف الجند عن المبشّر ، وجلس كلّ واحد يفتّش كيسه ، ابتعدت نحو أقصى ركن من العربة رفقة بيل ، جلسنا بينما المبشّر يقابلنا في الزّاوية الأماميّة للعربة وهو يحضن ساقيه ويتصفّح الوجوه المنكبّة نحو الأكياس . شدّتني سذاجة الجند وهم ينصاعون لكلّ متحدثّ يرفع صوته ، استفسرت في هدوء من بيل الّذي طلب منّي ألاّ أنشغل بالتّحديق نحو المبشّر وأن أصرف نظري عنه حتّى لا

يرتاب منّي ، تناولت قطعة من الخبز بينما بيل بالكاد ينهي وجبته وعينه على ما تبقى من وجبتي ، قرّبت إليه كيسي ، فهزّ رأسه وابتسم قائلا :

. بدأت تقرأ أفكار من حولك ، هكذا يجب أن تكون ، هؤلاء الجند لا يحملون أفكار القيادة ، التّدريب العسكريّ قتل ثقة الكثير في أنفسهم ،وجعل عقولهم تبحث عمّن يقودها ، والقيادة من شروطها رفع الصّوت بحكمة ، لولا خشيتي من هؤلاء المبشّرين، لجمعتهم الآن من حولي في نصف دقيقة ، ولألّبتهم على أولئك القادة الّذين امتدحهم المبشّرون وغيرهم من أتباعهم . الجند بحاجة لمن يصفع ضمائرهم بكلام قويّ ينتشلهم من العالم الزّائف الّذي هم فيه ، أنا لولا تمرّدي المستمر على القوانين العسكريّة لسرت إلى مثل ما سار إليه هؤلاء...

كنت أنصت في هدوء إلى كلام بيل الخافت حينما سمعنا صوت الصّافرة ، حينها رُكنت العربة، ورفع الغطاء المسدول إلى منتصف بوّابتها ، نطق المبشّر في آخر العربة قائلا :

. هي صافرة الوصول...

تأهّب الجميع وحملوا حقائبهم ، نزلوا الواحد تلو الآخر ، وجّهنا حيث يقف أربعة من الضّباط بلباس عسكريّ ، طلب منّا الاصطفاف على أربع مجموعات ، حينما اكتمل تعدادنا ، سار نحونا جنديّ يحمل الملفّ الرّماديّ ذاته الّذي دوّنت عليه أسماؤنا قبل انطلاق الرّحلة ، بعد أن وجّه تحية للضّباط الأربعة ، توجّه إلينا بابتسامة قائلا:

. أهلا بكم أيّها الرّفقاء الكرام ، يسعدنا أنّكم وصلتم بعافية إلى هذه المنطقة العسكريّة ، لا تستمعوا لما يقال هنا وهناك عنها ، أنتم باقون على خير ما دمتم في حمى فرنسا ، وإنّما العدوّ هو من يسعى إلى نشر الإشاعات حتّى يقلّلوا من عزائم الجند ، كونوا على يقين أنّ حضن فرنسا يتّسع لكلّ أبنائها ، وهذا المكان مميّز لأنّه يحمل بركة القدّيسين وصلواتهم الدّائمة للإله حتّى ينصرنا على العدوّ.

. ثمّ أشار الجندي إلى مرتفع ينطلق من منحدر ترابيّ سحيق نحونا.

. هذا هو مقر السّيغون ، وسنسلك هذه الطّريق التّرابيّة نحوه ، بإمكان كلّ جنديّ يذكر اسمه الصّعود ، وسيجد في نهاية الممرّ جنديّا سيرشده نحو البوابة.

انطلق الجنديّ في مناداة أسماء الجند ، بينما انتظرت أنا وبيل مدّة كوننا آخر الملتحقين وبذلك آخر من سيصعد المسلك التّرابيّ . المكان يدعو إلى الرهبّة ، يظهر كقصر قديم شوّهته السّنون الّتي عرّت بعض جدرانه وأكلت أجزاء من أعمدته الشّاهقة ، يحيط بالمكان صور شائك في الأسفل ، تركت فتحة تمكّن من مرور شخصين جنبا إلى جنب ، بينما ترتفع بعدها إلى قمةّ تنتشر على أرجائها صخور وأشجار الفلّين ، ويستمرّ على جنبي الممرّ الصّور الشّائك إلى الأعلى ، حيث تطلّ خمس أبراج للحراسة على هذه النّاحية ، عند نهاية الممرّ استقبلنا جنديّ بابتسامة ذابلة سائلا بيل من خلفي :

. أنت آخر ملتحق؟.

. أظنّني كذلك (أجاب بيل).

. الجنديّ الحاذق من يتجنّب بداية ونهاية الصّف.

تفحّص بيل ملامح الجنديّ ثمّ ابتسم بسذاجة.

ناحية البوابة الخشبيّة الكبيرة ساحة كبيرة تجمّع خلالها الجنود ، سرنا اتّجاه السّاحة وأنا أنتظر تعليقا من بيل على كلام الجنديّ ، التفت جانبا وإذ بابتسامته الّتي قابل بها الجند لا تزال معلّقة على وجهه ، كانت السّاحة تتّسع في ناظري والأبراج من حولها تعلو كلّما سرنا نحو مركز السّاحة ، كانت أعلام فرنسا ترفرف حولها ، وأعلام أخرى أقلّ حجما متراصّة على حبال بشكل أفقيّ تنطلق من البوابة على جهة واحدة ، وخلفها منصّة شرفيّة من لوح عليه انعكاس الشّمس، وعلى حواشي المنصّة جلد مدبوغ على شكل مثلّثات ، فيما يتوسّطها صليب مذهّب مثبّت فوق قوس تأخذ اللّون نفسه ، كانت المنصّة فارهة بسجائدها المزركشة وكراسيها ذات الجلد البنيّ اللاّمع ، كان هذا التّجهيز ينبّئ بزيارة لشخصيّة مرموقة كما جرت العادة خلال تواجدي بثكنات فرنسا ، لحظتها تذكّرت كلام المبشّر عن الجنرال ،أشرت إلى بيل بالأمر فردّ غير آبه :

. أخبرتك سابقا يا توماس، نحن نسير وفق برنامج معدّ من قبل.

تقدّم ناحيتنا أربعة من الضّباط ، أشار أحدهم علينا أن ننقل حقائبنا خارج السّاحة والعودة سريعا والاصطفاف ، بعدها تلاحق جند كثر بالسّاحة بلباسهم العسكريّ المزركش ، ثمّ تبعهم ضباط واصطفوا أمام المنصّة الشّرفيّة في استعداد . دخل السّاحة ضابط ثمّ اتّجه نحونا وألقى التّحية مخاطبا :

. أيّها الجنود ، سيلقي الجنرال دوبرومون كلمته إليكم ، فأرجوا أن تنظِّموا صفوفكم جيّدا ، وأن تبادلوه التّحية كما جرت الأعراف العسكريّة ، أنصتوا إليه جيّدا...

لحظتها استدارت أجساد الضّباط والجند على المنصّة نحو مدخل بناية يظهر أنّه تمّ طلاء جدرانها حديثا ، خرج جند بلباس أسود استعراضي يقبضون بأيمانهم رؤوس سيوف ذات لون ذهبيّ ، انقسموا إلى فرقتين واصطفّت كلّ فرقة بجانب بوابة البناية ، أثناءها خرج ضابط وتبعه الجنرال دو برومون ، كانت بدتله العسكريّة الّتي يرتفع عنقها إلى غاية ذقنه مزيّنة بأوسمة علّقت أسفل كتفه ، وزرّان

فضّيان يظهران في منتصف صدره ، فيما أخفى الحزام الأبيض العريض الّذي يستدير نحو ظهره بقيّة الأزرار ، وقد أسدلت على كتفيه ضفائر من كتّان ذات لون يميل إلى البنيّ ، كان يتأبّط قبّعته ، فيما شعره الأجعد الكثيف يُظهر وجهه كرأس قنفذ ، سار في وقار ناحية المنصّة بينما رفعت الأيادي للتّحيّة . وقف منتصبا وأمال رأسه نحو الضّباط والجند على المنصّة ، ثمّ استدار نحونا وأمال رأسه مبادلا تحيتنا وصعد مباشرة إلى المنصّة.

13

تقدّم الجنرال دو برومون نحو حافّة المنصّة ، استدار ناحية الضّباط والجند متأمّلا وجوههم ثمّ ثبّت بصره ناحيتنا مبتسما.

. أيّها الرّفاق في محبّة فرنسا ، ها أنتم اليوم من خيرة أبنائها ، تقفون لأجل بعث حضارتها في أرض تشبّع أهلها بالجهل والوحشيّة ، لقد جدّدتم عهد الصّلبيين في نشر التّعاليم المسيحيّة الخالدة ، وإنّ هذه المسألة هي قضيّة روحيّة تدرك بالباطن وتجسّد بأيديكم حسب قوانين فرنسا المتمدّنة . وإنّ الهدف الّذي نسعى إلى تحقيقه في إفريقيا هو أسمى وأقدس من الهدف الّذي نسعى إلى تنفيذه في بقية البلدان الأوروبيّة ، لكنّ الأذهان المتحجّرة الّتي تسكن أجساد هؤلاء القوم المتواجدين على هذه الأرض أبوا الانصياع لأوامرنا ، أو ترك مجال لنا لزرع الحضارة في أوساطهم ، لذلك نحن ماضون في

مسعانا النّبيل ولو على رقابهم ، وجئنا ببعض الأسرى إلى هذا المكان سعيا منّا إلى تلقينهم التّعاليم المسيحيّة السّمحة ...

صمت برهة، ثمّ رفع يده و خفضها نحونا وأردف قائلا:

. أدرك تعبكم ومشقّة سفر بعضكم من فرنسا إلى هنا ، لكن هناك أمر هامّ سأوجّه به إليكم ، أرسل لنا بلاغ مستعجل مفاده انتشار وباء الكوليرا في مناطق بفرنسا ، وسعيا من حكومتنا للحفاظ على سلامة أهالي العساكر الّذين هم في خدمتها ، سينقل أهاليهم إلى مناطق آمنة ، سيمنع على الجميع التّنقل نحو فرنسا إلى غاية زوال هذا الدّاء ، وستكون ثمّة مراسلات طبقا لرغبات كلّ عسكريّ مع أهله بداية من الأسبوع المقبل ، توجّهوا الآن إلى الرّاحة ، وسيعرف في الغد كلّ واحد منكم مهامه .

حملنا حقائبنا في صمت ، كان يظهر على وجوه الجند تأثّر بالبلاغ ، بعد ذلك وزّعنا إلى أربع مجموعات ، كلّ مجموعة تضمّ اثني عشر جنديّا . رافقنا ضابط نحو مدخل البوابة ، ثمّ سلّمنا إلى أحد الجنود الّذي اتّجه بنا ناحية مبنى كنائسيّ تظهر عليه ملامح

التّرميم ، فتح لنا الباب وطلب منّا الدّخول ، سبقنا وأشار بيده أن نتوقّف ، ثمّ مشى بهدوء ناحية جمع من الكهنة ، قام ناحيته عجوز تظهر عليه ملامح الهيبة ، له لحية بيضاء تنتشر على وجهه مثل كومة صوف، و شعر أشيب يسترسل على كتفيه ، و فوق رأسه تاج مذهّب في منتصفه صليب منحوت بخطّ فضيّ ، انحنى الجنديّ أمامه ، ثمّ حدّثه حديثا خفيفا وهو يشير نحونا ، بعدها عاد إلينا قائلا :

. يبدو أنّ حظّكم وافر عن البقية ، ستنالون بركة المطران ميرونيس ، وهو رئيس الأساقفة هنا ، شعرت بامتعاض من كلام الجنديّ ، أدرت رأسي ناحية بيل فهزّ رأسه مبتسما ، خفّت ابتسامة الجنديّ وهو يراني أنظر ناحية بيل بملامح مقبوضة ، ضغط خديه غاضبا ، ثمّ بلع كلاما رأيت أنّه سيوجّهه إليّ ، أدار رأسه ناحية تجمّع الكهنة ، ثمّ وجّهه ناحيتنا قائلا قبل أن ينصرف غاضبا:

. انتظروا هنا ، سينهي المطران تجمّعه وينادي عليكم ، بعد لحظات قام الجمع المتحلّق حول المطران ، ثمّ ابتسم ناحيتنا وأشار إلينا

بالاقتراب ، سرنا نحوه ثمّ وقفنا وانحنينا أمامه ، هزّ رأسه بلطف وأمرنا بالجلوس ، رفع يديه وضمّ كفّيه قائلا :

. أنتم في رعاية المسيح مادام انتقاكم لتمثيله وتلقين تعاليمه لقلوب لا تدرك مفاهيم الرّسالة المقدّسة الّتي أتى بها ، كان صوته هادئا ينمّ عن ثقة وبداهة وحكمة ، غير أنّني استعجلت الكلام لحظتها ، وانفلتت من لساني كلمات رمت بي إلى جحيم لم أكن أتوقّعه ، غير أنّني لم أشعر بنفسي إلاّ وبيل يشدّ على معصمي بقوّة طالبا منّي الصّمت ، صمتّ مذهولا بعدها ، وكانت حجّتي الّتي اسكنتها داخلي ولم أتفوّه بها مخافة أن يتّهموني بالجنون ، أنّ الكلام فرّ منّي ، ولست أنا من يتكلّم من غير أن يزن كلامه ، جلّ ما قلته في حضرة المطران :

. مسيحكم الّذي لفّقتم حوله الأكاذيب ، ليس هو المسيح الّذي عاش قبل مئات السّنين ، وإنّما أنتم رجال دم وخنوع إلى حكومات دولتكم

.

أثناءها ابتسم ناحيتي المطران ، ثمّ التفت عنّا واستدعى جنديّا كان يقف عند الباب ، وقف الجنديّ بين يديه وأحنى رأسه ، ثمّ أشار إليه المطران بالاقتراب ، همس في أذنه كلاما لم أفقهه، ثمّ طلب منّا الانصراف ، قمنا وطلب منّا الجنديّ حمل حقائبنا والسّير خلفه ، فاقترب منّي بيل قائلا :

. تبّا لك ... كيف تقول هذا الكلام في وجه المطران ، هل تعلم من يكون؟ ، هذا العجوز أعلى رتبة هنا من الجنرالات ، ومصير العسكر وتقاريرهم بيديه .

. صدّقني يا بيل ، لا أعلم ما حدث ، غير أنّني تحدثت بصدق نفسي ، فلساني سبق بديهتي ، كأنّ كلامه كان موجّها إليّ ، فاستفز ما بخلدي ، فقلت ما قلت دون وعي منّي.

. كان عليك مسك لسانك يا توماس ، ستلحق بك لعناته من طرف أتباعه ، كلّنا يعلم ، وهو يدرك كذلك في خلجات نفسه صدق ما قلت ، لكن هذا يعدّ تمرّدا على الكنيسة الكاثوليكيّة ، ثمّ أنّ الحكومة

الفرنسيّة هؤلاء هم قادتها الفعليّون ، والكلّ ينصاع لأوامرهم ، ولا تنس أنّك هنا معاقب ، فماذا ستضيف إلى عقوبتك هذه غير...

. غير ماذا يا بيل ؟

. أظنّنا سنفترق بعد لحظات يا توماس ، عليك أن ترتّب للخروج من ورطتك هذه ، ثق بأنّك ستجد طريقا إلى النّجاة ، كن متبصّرا فيما حولك ، وحاول أن تنبش في العقول الّتي تسعى إلى أذيّتك ، حتما ستجد فيها ما يدعم خلاصك ، يجب أن تقف هذه المرّة ضدّ نفسك ، فقط كي تنتشلها من الهلاك ، سأحاول إيجاد منافذ للقائك، وحاول أنت كذلك.

. لا تكترث ، فحياتي منذ أمضيت مرغما على وثيقة التّجنيد لم تعد ملكا لي ، فليتصرّفوا فيها كما يريدون.

. توماس ... سأخبرك بأمر كنت قد أخفيته عنك مخافة من انفعالك ، ومخافة أن أتّهم بالتّحريض فيلحق ضرر بك وبي.

. ماذا تقصد يا بيل ؟

. نيلسون ... نيلسون يا توماس.

. كيف ؟.. ما به نيلسون ؟

. نيسلون خانك ، لم يكن يوما في صفّك يا توماس.

أحسست بدوار غريب ، كدت على إثره أن أقع أرضا لولا أن طوّق بيل جسدي وضمّه بقوة إليه ، تداركت نفسي وأمسكت أعصابي ، قبضت بكلتا يديّ على معصم بيل ثمّ نظرت صوب عينيه المغتاظتين قائلا :

. أكمل يا بيل ، كيف عرفت هذا؟

. تيقّنت من حقيقته يوم أخبرتني أنّ كتبا كانت بحوزتك وحجزت من طرف الضّابط بالسّفينة ، والحقيقة أنّني أبصرته في ليلة كنت أنت فيها تغطّ في نومك وهو يستخرج كتبا من حقيبتك في هدوء و حذر ، ثمّ حملها وسار خارجا وعاد إلى مكانه ، وفي اليوم الّذي وصلنا فيه وقفنا مصطفّين ننتظر أدوارنا أمام مكتب الضّابط ، خرج مسرعا منتشيا بالفرح ، حمل حقائبه وسار بضعة خطوات ، ثمّ

توقّف غير بعيد عنّا مختفيا خلف بناية ، لحظتها سار نحوه جنديّ وانتصب واقفا أمامه رافعا يديه للتّحية ، حينها عرفت أنّه لا يحمل رتبة جنديّ ، إنّما ضابط دسّ في صفّنا ليقرأ ما يدور في أذهاننا اتّجاه حكومة فرنسا . فقد نجح في استدراجك يا توماس.

. أيعقل هذا يا بيل ! كيف لي أن أكون بمثل هذه السّذاجة ؟ ، كان كلامه صريحا ، حتّى تصرّفاته كانت تعبّر بصدق عن شخص متشائم من وضعه ويائس من حياة التّجنيد.

. هي مهامه يا توماس ، أن يمنحك الثّقة اللّازمة ليستولي على أفكارك الصّادقة ،اختارك لأنّه وجدك شخصا مختلفا عن البقية ، قد تكون الكتب الّتي كانت بحوزتك لها أبواب تنفتح على حياة تصرف نظرك عن مهام التّجنيد ، وسعى أن يجد سبيلا إلى قلبك وعقلك ونجح في ذلك. كان عليك أن تتفطّن إلى الأمر ساعة أن استغلّ دخولك إلى مكتب الضّابط ليبتعد عنك ، وساعة أن سألت الجنديّ الّذي اصطحبنا نحو عربات الجند فحاول التّهرب من سؤالك.

وقفت مذهولا ، كيف أنّني خدعت بهذه البساطة ؟ وكيف كنت ليّنا في تعاملي مع نيلسون؟ وأنا الّذي لم أثق بأفكار أحد من قبل ، وكيف مرّت علي إشارات أرسلت إليّ لتنبّهني فتغافلت عنها؟ ذلك أنّني وثقت بكلامه ولم أترك مجالا للرّيبة ... ذلّك أنّني كنت ساذجا.

14

اختفى الجنديّ للحظات ثمّ عاد إلينا ، انتبهنا لمجيئه فشخصنا أبصارنا ناحيته.

. من منكم توماس جون روش ؟

. أنا هو ...

. اتبعني .

حملت حقيبتيّ وأشرت إلى بيل وبقية الجند مودّعا . في طريقي استوقفت الجنديّ سائلا عن مكان وجهتنا ، فاستدار نحوي، تفحّص ملامحي هنيهة ثمّ تابع قائلا :

. إلى ستارغو.

. وما هذا المكان؟

. مكان بالجانب الشّمالي لسجن السّيغون ؟

. وما مهامي هناك ؟

صمت الجنديّ بعض الوقت ليجيب :

. لا أعلم بالضّبط ، كلّ عملي أقضيه بالسّيغون ؟

. وما عملك بالسّيغون ؟

. أحيانا أخرج في مهمّات عسكريّة ، وأحيانا أعمل بالقدّاس ، ودراسة التّعاليم المسيحيّة ثمّ ألقّنها لبعض الأسرى الّذين أشرف عليهم.

. وكيف تشرف عليهم ؟

. كلّ جنديّ هنا مكلّف بتنصير الأسرى خاصّة الأطفال ، وذلك أنّ كبار السّن أغلبهم عقولهم متحجّرة ، ويرضون بالتّعذيب وحتّى بالموت على الانصياع لنا.

حاولت كبت غيظي ، لكن تذكرت أنّ خطاي تتّجهان نحو عقاب جديد ، ربت على كتف الجنديّ قائلا :

. هل تحدّثك نفسك بأنّك شخص مجرم ؟ وهل يعقل أن تفرض على أسير تحتلّ أرضه أن يتّبع دينك مجبرا؟.

لحظتها ارتعش جسد الجنديّ ، ثمّ نظر صوبي ، وأدار رأسه يمينا وشمالا وتابع قائلا :

. هل أنت فرنسيّ ؟

. وهل تعتقد أنّ كلّ شخص ينتمي إلى فرنسا هو راض بأن يظلم أبناؤها شعوبا أخرى تحت راية التّمدّن ؟ فأنا صادق مع نفسي يا صديقي ، حاول أن تبحث عن ذاتك النّظيفة داخلك وستدرك صدق كلامي ؟.

. هل تعلم أين أنت ذاهب؟

. فليكن ،لا يهمّني أين سيلقى بي بقدر اهتمامي بصدق نفسي.

بعد أن خرجنا من بوابة خلفية وانحدرنا إلى طريق ترابيّ، قابلنا مبنى قديم ، تظهر على جدرانه العاريّة شقوق واسعة بالكاد تبرز شيئا من المكان الّذي خلفها ، ولجنا بوابة حديديّة مصدّية

ذات جانبين ، جانب منها عالق في التّربة حيث أكل الصّدأ بعضه ، كانت ساحة كبيرة تحمل عددا هائلا من العربات القديمة وعربات مجزّأة ، وأخرى لم يبق منها غير هيكلها ، وعجلات موزّعة على المكان . استدرت نحو الجنديّ مستفسرا :

. ما هذا المكان ؟

. قلت لك من قبل هذا المكان يدعى ستارغو وهو مقبرة للآلات الّتي لا تصلح ، وكذلك الأشخاص... انتظر هناك شخصان قادمان نحونا ، سيصطحبانك إلى المكان الّذي ستزاول به مهامك.

لم أستوعب كلام الجنديّ وأنا أرى هذا المكان الشّاسع مقفرا ولا يصلح لأيّ مهام ، اقترب الشّخصان ودنا منهما الجنديّ ليسلّمهما ورقة كان يدسّها بجيب سترته ، ثمّ تبادلوا الحديث لبعض الوقت وهم يشيرون إليّ بين الفينة والأخرى ، بعدها انسحب الجنديّ واقتربا ناحيتي الرّجلان ، كانا ضخمين بزي أسود بالٍ غير عسكريّ ، آثار الجدّية بادية على ملامحهما . لم أكن أعتقد لحظتها غير أنّهما سيصطحباني معهما إلى مكان آخر، غير أنّهما توقفا للحظة

، ثمّ اقترب منّي أحدهما وضربني بجُمْعِ يده على ذقني ، غبت عنهما لحظتها ، ولم أشعر بما حولي إلّا وأنا أفتح عينيّ على مكان به ضوء خافت ، أحسست بألم رهيب يطوّق حلقي ، بالكاد أستطيع تحريك رأسي ، وضعت يدي على شفتي ، فإذا بدم متحجّر عليهما ، لا أعلم كم مضى من الوقت على غيبوبتي ، ولا المكان الّذي رميت فيه ، سوى أنّني تذكّرت النّظرة الحاقدة لذلك الشّخص وهو يصوّب نحوي قبضة يده ، بقيت للّحظات دون حركات وعيناي معلّقتان نحو سطح البناية الّتي ينفذ عبر شقوقها ضوء خافت ، علمت لحظتها أنّ اللّيل يحّف المكان ، كان الصّمت من حولي مريبا ، وكأنّني رميت في مكان لا حياة به ، حاولت إزالة الدّم المتحجر الّذي يعيق نفسي حول فمي ، لكنّ الوجع الّذي أحاط بحلقي منعني ، تأوّهت ألما ، بعدها حاولت إسكان أنفاسي ، لحظتها سمعت حركة من حولي ، وكأنّ أمرا يزحف ناحيتي ، بعدها ألقي على رأسي جسم بارد ، ثمّ شعرت بيدين ترفعان جسدي وبجسم يسند حلقي ، نحو الأعلى ، ثمّ انطلق همس غريب من

حولي ، كلام بشريّ غير مفهوم ، أُسندت على صور البناية ، وشُدّ حلقي بقماش أدير على رأسي ، ثمّ أزيل الدّم المتحجّر حول فمي بقطعة قماش مبلولة ، حينها شعرت بسكينة من حولي ، هدأت أنفاسي وبدأ الألم يزول من حلقي ، استسلمت للنّوم ، فغفوت لبعض الوقت ، ثمّ عدّت وفتحت عينيّ على المكان ، تضاعفت حيرتي وأنا أرى وجوها غريبة تنظر نحوي بنظرات مشفقة ، كانت أجسادا هزيلة تضمّ مفاصلها في بؤس، خمسة رجال من حولي أجسامهم شبه عاريّة ، ملامح وجوههم تكاد لا تظهر من كثرة الشّعر الأشعث المسترسل عليها، لهم ذقون طويلة تملأ ما بين أكتافهم .

كشف الضّوء المنبعث من منافذ عديدة أعلى السّقف عن مكان أشبه بإسطبل ، مياه راكدة متجمّعة نحو زوايا البناية وفضلات بشريّة قربها ورائحة لا تطاق ، كأنّني في حلم ، رحت أتحسّس جسدي علّني أوقظه ، التفتّ إلى النّاحية الأخرى وإذ بباب حديديّ واسع في منتصفه تنتشر قضبان حديديّة بينها شباك ذات فتوحات

ضيّقة ، وأسفله فتحة ضيّقة بطول الباب الأوسط . نظرت ناحية الوجوه البائسة وإلى قطعة القماش الّتي ظهر أنّها مزّقت من قميص أحدهم ، فأيقنت أنّهم أسرى مثلي ، لكن ليسوا فرنسيّين، وإنّما هؤلاء هم أصحاب الأذهان المتحجّرة الّذين أشار إليهم الجنرال دو برومون في خطابه ، وهؤلاء البائسون من بين الّذين رفضوا الانصياع لأوامر الجند.

15

ظلّ جسمي كتلة متحجّرة في مكان شعرت برطوبته، كانت تمتصّ ما بقي من طاقتي ، صعب عليه الحراك ... مشقّة السّفر ... الجوع الّذي ينهش بطني ...وتورّم ذقني ... أحسست وكأنّ روحي بدأت تتسلّ من هذا الجسد الهزيل ، لحظتها قرع الباب الحديديّ بشدّة ، وقذف أسفله صحن حديديّ كبير على طرفه خبز وفي طرفه الآخر قدح به ماء ، انسكب الماء بالصّحن ، فهرع الأسرى نحوه يرفعون الخبز بعد أن ارتوت أطرافه ماء ، ثمّ انطلقت قهقهة بين القضبان الحديديّة ، توجّهت أعين الأسرى نحو الباب ، حملت بدوري رأسي بصعوبة ناحيته ، كانت عينان تلمعان شراسة وحقدا تطلّ من بين القضبان ، تفحص الجنديّ المكان وملامح الأسرى ثمّ انطلق ساخرا :

. ألم يمت أيّ واحد منكم ، أيّها الحمقى ، كيف ترضون بهذه الحياة ، حاولوا نهش بعضكم البعض.

صمت الجنديّ ونظر ناحيتي متصنّعا الشّفقة ، ثمّ أردف قائلا بصوت خافت :

. المتمرّد المسكين ! لا أدري كيف لم تقض عليك هذه الوحوش الجائعة ، ستعلم الآن كيف تهذّب لسانك مع أسيادك.

فتح الجنديّ الباب الحديديّ وتقدّم بضع خطوات :

. أووووه ... المكان مقرف . خفض رأسه ناحيتي وأخذ يضغط على ذقني بكفّ يمناه ويسحبني إليه ، شعرت بألم رهيب يضغط رأسي ، لم أشعر بنفسي إلاّ وكفّي تمتدّ نحو الجنديّ لألطم خدّه، ذهل الجنديّ الّذي اتّسعت عيناه ناحيتي وهو يمسك خدّه ، نظر ناحية الأسرى الشّاخصة أبصارهم ناحيته ، ثمّ همهم وقام يصفّر وينظر ناحيتي متعجّبا ، خرج وعاد بعد هنيهة يحمل كرسيّا وفي فمه سيجارة ، وضع الكرسيّ جنبي ثمّ جلس ونظر ناحية الأسرى قائلا :

. انظروا إلى جرأة الأسير الفرنسيّ ، عكسكم تماما ،لا يرض أن يذلّه أحد ، لكن المسكين نسي الآن أنّه مثلكم وحياته لا معنى لها وهي مرتبطة بقرارات الجنود الفرنسيّين ، لكن لا يجب أن أستعجل ،

قد يكون الموت راحة له ، إذن فليعش عذابا طويلا ، أو ما رأيكم أن تقطّع أطراف جسده وتلقى في أماكن متفرّقة ، وهذا حتّى لا يبق لرفاته مزار ولا معلم.

ثمّ أشعل سيجارته وأخذ ينفخ دخانها ناحيتي ، بعدها قرّبها وأطفأ جمرها على ذراعي ، ثمّ عاد وأشعل سيجارة ثانية وأخذ يمرّر جمرها على رقبتي ليضغط بعدها بلهيبها على جلدي ، ارتفعت حرارة جسمي ، وتصبّب عرقا ، بالكاد أفقد وعيي من شدّة الألم ، حتّى عدت لا أشعر بما حولي ، تشكّلت ضبابة حول عينيّ ، منعتني رؤية ما حولي بوضوح ، بعدها قام الجنديّ واقترب من أذني قائلا :

. يكفي اليوم ، كلّ ما أخشاه أن تموت من غير أن أشفي غليلي منك ، سأعود لاحقا ، أشعر أنّه قد جفّ حلقك ، وهذا لا يريحني، خذ هذا..

ضغط الجنديّ بأصابعه أسفل ذقني ثمّ دفع رأسي إلى الخلف ، ورفع الصّحن الحديديّ ساكبا الماء على وجهي ، رمى الصّحن أرضا وسار خارجا ، ودفع خلفه بشدّة الباب الحديديّ، هرع الأسرى

ناحيتي يحملون فتات الخبز من الأرض ويجعلونه بين شفتي ، ثمّ يملأون أكفّهم بالماء الملوّث بالفضلات والأتربة ويلقونه على أطراف جسدي . لم يعد للأنف سلطة ولا قدرة كي يبدي تقزّزه من الرائحة النّتنة حوله ، حينما تطأ قدماك السّجن أغلق كلّ حواسك وتنفّس ما تبقى من الحياة داخلك . بدأت الحرارة تخفّ شيئا فشيئا وهدأت أنفاسي المضطربة ، توالت لحظات الألم ، وتتابعت السّاعات ثقيلة في هذا المكان النّدي ، كنت أغفو تارة ثمّ أفتح عينيّ على ألم يلسع مناطق من جسدي .

في المساء من اليوم نفسه ، فتح باب السّجن ، كنت أنتظر أن يتحدّث الجنديّ ساخرا أو أن يقترب منّي ليلكم جسدي ، لكن لم يحصل شيء من هذا ، فقد رفع الجنديّ الصّحن والقدح وسار خارجا ، ثمّ عاد ووضع صحنا آخر بهدوء به قدح ماء وخبز وقطع من بطاطس مطبوخة ، تلفتّ ناحيته ورفعت رأسي نحو ملامح وجهه وإذ به جنديّ آخر غير الّذي زارنا صباحا ، هدأت أنفاسي

بعد أن انسحب الجنديّ وأغلق باب السّجن خلفه في هدوء دون أن ينبس ببنت شفّة .

أبصرت انبساطا خفيفا على ملامح الأسرى وهم يقتربون من الصّحن ويتقاسمون الخبز والبطاطس فيما بينهم ، ثمّ تكلّموا بلهجة عربيّة لم أفقهها واقترب منّي أحدهم ، وقرّب الخبز ناحية فاهي مشيرا إليّ أن أفتحه ، أخذ يفتّت الخبز بأنامله لتقع داخله ، ثمّ يتبعها بقطرات من الماء . كان تعامل الأسرى يبعث في داخلي أملا للبقاء ، رغم الظّروف القاسيّة ، رغم إدراكهم أنّني أنتمي إلى بلد استضعفهم إلاّ أنّهم حاولوا إسعافي وتقاسموا معي طعامهم . ركنت إلى الرّاحة بعدما دبّ الهدوء من حولي ،غفوت لساعات استشعرت طولها إلى أن انتابني فزع رهيب كان مصدره ناحية الباب ، عاد الجنديّ بملامحه الغضّة ونظرته الحاقدة ، يحمل كرسيّا وعلى حافّة شفتيه سيجارة تتصاعد من طرفها خطوط من الدّخان ، وضع الكرسيّ قربي ، ثمّ أخذ السّيجارة بين سبّابته وإبهامه ونفخ ناحيتي دخانها ثمّ تابع قائلا :

. أظنّك ارتحت لساعات منّي ، لا تخف لن أبتعد عنك طويلا ، انظر إلى خدّي كيف أصبحت ، الكلّ سخر منّي ، ما رأيك أن يصبح كلّ جسمك أسود من أثر سيجارتي قبل أن يهلك؟.

. تصاعدت أنفاسي وأنا مغمِض عيني أنتظر ألام الكي وأملأ مسامعي بصوت قهقهته المرعبة ، حينها بدأت وخزات الجمر تأكل جلدي ، وكأنّ مسمارا يدق عظم جسدي ، أغمي عليّ لحظتها ولم أعد إلى رشدي إلاّ وأنا أرى ملامح الأسرى من حولي وبيدَي كلّ واحد منهم قماش مبلّل ، فتحت عينيّ على ملامحهم المبسوطة بعد أن نجحوا في جعلي أستعيد وعيي ، بلّلوا شفتي المتشقّقتين بالماء ، ثمّ قرّبوا ناحية فمي القدح ورحت أرتشف منه ، شعرت بجسمي يلتهب حرارة بفعل الكيّ ، لم أشعر بقدر الوقت الّذي مرّ على ذهاب الجنديّ ، لكن علمت أنّه المساء وأنّ ساعات عديدة مرّت على إغمائي ، بعدما رأيت صحنا مرتّبا يقابلني به بعض الخبز وقطع من البطاطس ، استعدت وعيي تدريجيا ، بينما جسمي أصبح ثابتا في مكانه ، يضطرب ألما كلّما حاولت تحريك عضو منه .

مّرت ثلاثة أسابيع على تواجدي بهذا المكان المرعب ، وتواصل عذابي وألمي ، كنت في لحظات عديدة أطلب الموت أو أن يقضي عليّ ذلك الجنديّ بضربة واحدة ، تمنّيت لو أستطيع مدّ يدي ناحيته لأصفعه كما فعلت في المرّة الأولى ، حاولت استفزازه بابتسامتي الخفيفة حينما ينطلق في كيّ أنحاء من جسدي ، لكن لا جدوى من ذلك ، وقد أصبحت لا أقوى حتّى على رفع جفنيْ ، كان الأسرى من حولي في كلّ مرّة يرفعون جسدي من مكان إلى آخر خشية تعفّنه ، وكانوا يزيلون ترسّبات تشكلت على مناطق منه بفعل الرّطوبة والعفن المنتشر حولنا ، سحبت مرّات عديدة على بطني من قبل الجند وهم يطلبون من الأسرى الخروج للعمل، وكنت أترك ملقى بالسجن بعد أن أتعرّض للرّفس من الجند ، فيغمى علي و يعيدني الأسرى إلى مكاني بعد عودتهم.

فقدت الأمل في الحياة ، وكنت أنتظر الوقت الّذي أغيب فيه عن وعيي دون أن أستجيب لطلب الأسرى في عودتي إليهم ، صاروا جزءا منّي ومن عذاباتي وألمي ، إلى أن أتى ذلك اليوم ،

كنت أنتظر – كما تعوّد جسمي على الكيّ – دخول الجنديّ بكرسيه وسيجارته ليجلس بجانبي وينطلق في مهمّته ، فتح الباب، ووقف الجنديّ يتأمّل ملامح الأسرى ، ثمّ أقفل الباب ووضع الصّحن قربي ، و صاح الجنديّ بصوت خافت :

. توماس ، ما الّذي حدث لك ؟ صرت عجوزا يا رجل.

رفعت بصري ناحية الجنديّ، وكان صوته يرنّ في أذني ، صوت رافقني لأيّام ، ليست بالغريبة عليّ نبراته ، سَرت بجسمي رعشة حينما رفعت بصري ناحيته ، بيل... بيل ، هكذا صحت في أعماقي ، ثمّ انفجرت باكيا ، كانت المرّة الأولى الّتي أذرف دموعا بهذه الحرقة ، شعرت بخطوط الدّمع الحارّة وهي تذرف وجعي وتقع مسترسلة على فخذي ، كنت أتحسّس حرارتها بعدما اعتقدت أنّ جسمي شلّت قوامه .

جلس بيل بجانبي ووضع كفّ يمناه على عيني وأخذ يمسح دمعي، ثمّ ضمنّي إلى صدره وهو يمسّح على رقبتي هامسا في أذني :

. قلت لك أنّني سأصل إليك يا صديقي ، اهدأ وكن كما عرفتك جريئا لا تخش الموت ، لن يعود إليك مجدّدا ، وسأكون أنا في حمايتك.

نظر إليّ وكأنّه قرأ استفسارا في عيني .

. قلت لك يا توماس حينما أريد أمرا سأصل إليه بطريقتي .

أخرج بيل من سترته ورقة وقلما وطلب منّي كتابة عنواني بفرنسا ، فوجئت لطلبه ، فابتسم ثمّ تابع قائلا :

. لا تقلق ، ثق بي فقط ، وستكون كلّ أمورك بخير .

أشرت إليه برأسي موافقا على طلبه ، وضع بين سبابة وإبهام يمناي قلما ، وضغط عليهما ، ثمّ بسط كف يسراه ووضع الورقة عليها قائلا :

. سأساعدك ...،حاول فقط تذكّر العنوان و تمرير القلم على الورقة.

كتبت العنوان على الورقة ، ثمّ طواها على أربع ودسّها في جيب سترته ، ثمّ قام ونظر إلي بعطف :

. حاول أن تكون بخير ، سأتصرّف كما لو أنّني سجّان لا غير ، حتّى لا أثير شكوكا من حولي ، لكن كن على يقين لن يعود ذلك الجنديّ الّذي أحدث هذه الآثار على جسدك.

ارتحت لكلام بيل ، وقضيت بعدها أسبوها ، استرجعت خلاله طاقتي ، برأ الجرح الّذي كان بذهني ، بدأت أطراف جسدي تسترجع نشاطها ، كان ذلك الجنديّ الصّامت يزورنا مساء، يتفقّد ملامحنا ثمّ يضع الصّحن ويختفي ، لم نسمع منه كلمة واحدة منذ أن رميت في هذا المكان ، بينما كان بيل يزورنا صباحا ، يمعن النّظر في ملامحي مبتسما ، ثمّ يضع الصّحن الّذي كان يزيد عليه أحيانا خبزا وجبنا ، كنت أدرك أنّه يقتطع من نصيبه ، تذكّرت يوم سلّمته علبة البسكويت فأخذها منّي دفعة واحدة ، حينها اعتقدت بسذاجته ، لكن أيقنت اليوم أنّه فعل ذلك متحايلا عليّ ، وها هو اليوم يفعل معي معروفا لم أكن أنتظره من أحد .

مرّ أسبوع ويومان على استئناف بيل العمل كسجّان في ستارغو ، عادت إليّ قواي ، واستطعت الوقوف على رجلي بعد أيّام طوال مكثتها جالسا بجسم مشلول ، كنت ألاحظ انبساط الأسرى وهم ينظرون إليّ حينما أحاول القيام ، كنت في الغالب أتقرّب منهم أحدثهم بالإشارات أو أخطّ لهم على الأرض رسومات توضّح لهم ما أريد ، كان يحزنني أمرهم وهم يسيرون تباعا إلى أعمال تشقّ أجسادهم ، ثمّ يعودون مساء بملامح متعبة وأجسام منهكة، كنت أتحسّس على وجوههم أثر الظّلم الّذي يتعرّضون له ، وأتقاسم معهم حزنهم ودمعهم حينما يفقدون واحدا منهم .

صبيحة اليوم الثّامن بداية من اشتغال بيل بالحراسة ، دخل علينا بابتسامة لم أعتدها ، ثمّ أقفل الباب خلفه وأخرج من جيبه ورقة وسلّمها لي قائلا :

. خذ واقرأ رسالتك من أمّك وخطيبتك إلينا ، فقط احذر أن يراك الجند . أدهشني كلام بيل ، لم أكن لأصدّقه لولا أن فتحت الرّسالة بسرعة وألقيت نظرة عليها ، نعم كان خطّ أمّي وتوقيعها أسفل

الورقة ، وفي الورقة الثّانية خطّ إلينا وكذلك توقيعها أسفل الورقة الثّانية ، كانت كلمات أمّي بسيطة مسترسلة ، تخبرني فيها أنّها تبذل مجهودا كبيرا لإعادتي إلى فرنسا ، وأنها سرّت كثيرا برسالتي وأخباري الطيّبة ، ثمّ تابعت تطمئنني أنّ الكوليرا لم تصل إلى باريس ، وأنّ السّلطات الفرنسيّة شنّت حملة واسعة لاستئصال المرض وإبعاد المصابين عن المناطق السّكنية وتسخير أطباء لمعالجتهم ، ثمّ ختمت تقول أنّها تنتظر موعد عودتي إليها . أمّا إلينا فقرأت حماسها لعودتي من خلال حكاياتها ، قصتّ عليّ أمر ذهابها إلى الغجريّة مايورتا قبل مغادرتي فرنسا بأيّام ،بعد أن تكرّر حلمها الّذي رأتني خلاله أسيرا وأنقل على عربة ، ثمّ كيف فصّلت لها الغجرية الحلم ولم يلق بها ، وبعد أيّام عاودها حلم أخر، حيث رأتني خلاله قادما أعرج من بعيد وأحمل راية بيضاء مبتسما ، ثمّ أنّها لم تجد سبيلا غير أن تقصد الغجريّة مايورتا وتسرد عليها الحلم معتذرة عمّا سبق ، حينها أخبرتها الغجريّة أنّها ستتلقّى خبرا سعيدا

سيغيّر حياتها . ثمّ أنّها أفرغت لها ما تحمل حقيبتها من مال ، وأنّها سعيدة كون حلمها سيتحقق قريبا .

في اليوم الموالي كنت أنتظر قدوم بيل بفارغ الصّبر ، لم أنم ليلتها ، وبقيت مستيقظا منتظرا انبلاج الصّبح وقدوم بيل . بعد أن أشرقت الشّمس ولفّ الضوء المكان ، فتح الباب الحديديّ ، دخل بيل كعادته وفي يده الصّحن الحديديّ ، هرعت ناحيته وأمسكت عنه الصّحن ووضعته أرضا ، ثمّ خاطبته قائلا:

. أخبرني يا بيل كيف وصلت الرّسائل إلى والدتي وخطيبتي إلينا ، ثمّ كيف تقول لهم أنّني سأعود إليهم ؟

ابتسم بيل وطلب منّي الجلوس فجلست ، ثمّ انحنى ناحيتي وربت على كتفي قائلا :

. لقد أرسلت رسالتين إلى صديق لي في فرنسا ، وهو من تكلّف بمراسلة عائلتك ، ثمّ حمل الرّسالتين إلى المصلحة العسكريّة لإعادة إرسالها ، أمّا عن عودتك ، فغيّر ملابسك وجهّز حقائبك مساء اليوم لتعود إلى فرنسا.

قمت من مكاني مذهولا لهذا النّبأ ، وكيف يحصل هذا وأنا أسير ؟ وقد ألحقت بي تهم التّمرّد على الجيش الفرنسيّ . سحبني بيل من يدي وطلب منّي الجلوس ، جلست قربه ثمّ نظر ناحية آثار الكيّ الموزّعة على جسدي وأردف قائلا :

. أنت فرنسيّ يا توماس ، والقانون لا يجيز أن يعاقب الأسير الفرنسيّ مهما فعل بالكيّ ، لذلك كتبت تقريرا عن وضعك بشهادة عسكريين ، أنا والجنديّ المناوب في المساء ، وأنّ حالتك العقلية منهارة بالإضافة إلى أنّك أصبت بجروح بليغة في نواحي عدّة من جسمك ، الملف الّذي وضعناه أنا والجنديّ سيدعمك كثيرا في أمر مغادرتك هذا المكان ، فقط بقي أمر بسيط أن نستكمل تقريرنا بتقرير طبيّ يثبت جنونك.

. كيف جنوني يا بيل ؟

. بعد قليل سأرجع إليك بطبيبين سيوقّعان على القرار الأخير لتحويلك إلى فرنسا ، لكن تظاهر بعدم الاستماع إليهما ،أو بالأحرى تصرّف مثلي كن ساذجا ومجنونا.

انبسطت لكلام بيل ، وأنا أراه أمرا مريبا أن أتظاهر بالجنون ، نظرت ناحية جسمي وإلى الجروح الموزّعة عليه ، وإلى ثوبي الرّث الممزّق ، ابتسمت محدّثا نفسي :

وماذا ينقصني كي أصبح مجنونا؟

بعد دقائق دخل بيل يرافقه الطّبيبان ، لم أكترث لدخولهما ، ورحت أعبث بشعري الأشعث ، نظر الطّبيبان ناحية المكان ، مستفسرين عن حالة الأسرى والرّائحة المنبعثة منه والأوساخ الّتي تحيط بالمكان من كلّ جانب ، اقترب منّي أحد الطّبيبين وأخذ يتفحّص أثار الكيّ على جسدي بأنامله ، ثمّ نظر ناحية بيل قائلا :

. كيف يتعرّض جنديّ فرنسيّ معاقب إلى مثل هذا الأمر؟

ردّ عليه بيل قائلا:

. هي تصرّفات غير قانونيّة من أحد الجنود ، وأظنّه لم يكن يعلم أنّ القانون الفرنسيّ ضدّ أن يعامل جنديّ أمضى عقدا عسكريا على خدمة فرنسا بهذه الطّريقة.

لحظتها أخرج الطّبيب من حقيبته ورقة وكتب مطوّلا تقريره عن حالتي ، ثمّ انسحبا رفقة بيل.

مساء عاد بيل ، وطلب منّي مرافقته ، ودّعت الأسرى الّذين اعتدت عليهم لأيّام طويلة ، شعرت وأنا أنسحب أمام أعينهم المشفقة الّتي تتبّع خطواتي ، بحسرة كبيرة على حالهم ، حاولت أن أبعد ذلك التّوجّس عنّي ، لكن بقيت ذكراهم عالقة في ذهني إلى اللّحظة ، لحظة توديعي بيل ووصولي إلى الميناء حدث ما لم أتوقّعه أبدا ، كنت بصدد ركوبي السّفينة وبرفقتي جنديين وكّلا بحراستي إلى غاية أن توقع أمّي على ورقة تفيد بوصولي ، سمعت صوتا ينادي باسمي، حينما استدرت أدهشني أن رأيته مبتسما ناحيتي ، كان نيلسون ، نعم ذلك الخائن الّذي حطّم جزءا من ذاتي ومن ثقتي بنفسي . أمر أحد الجنديين المرافقين أن يقترب ويتسلّم الكيس الّذي بحوزته ، ثمّ أشار إليّ بيده مودّعا وأعقب قائلا:

. الحياة ستطول معك ، حاول استعادة عقلك ، وأن لا تثق في أحد مجدّدا ، كان بالكيس الكتب الّتي أخذها منّي ، فكرت في حاله

وأيّامه الّتي سيمكثها وهو يخدع الجند من حوله ، وفي حياتي الّتي سأكملها حرّا من كلّ قيد ، نظرت ناحيته مبتسما ورفعت يدي مودّعا....

. والآن أنهيت حبيبتي إلينا ، يمكنك نقل المخطوط نحو الطّابعة.

. وهل استندت إلى ما دوّنته في مذكرتي ؟

. طبعا لم أنس الغجرية مايورتا ولا العجوز جوني والخادمة صوفيا ووصفك لساحة سانت ماري ديلامير.

. وكيف ستعنون الكتاب ؟

. مممم ، فليكن " سيغون ستارغو" مكان قلت فيه كلاما جريئا ندمت عليه كثيرا ، ومكان ذرفت فيه دمعا حارا لم أعتده من قبل.